



زياد الدريس

قل لي من أنا ... أقل لك من أنت

كلام في سوسيولوجيا الثقافة

المركز الثقافي العربي

زياد الدريس

قــل لي من أنا.. أقل لك من أنت!

كلام في سوسيولوجيا الثقافة

المركز الثقافي العربي



قـل لـي من أنــا..

أقل لك من أنت!

الكتاب
قل لي من أنا..
أقل لك من أنت!

تأليف
زياد الدريس

الطبعة
الأولى، 2011

عدد الصفحات: 196
القياس: 14.5×21.5
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-512-6

الناشر
المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 303339 522 ـ 307651 522
فاكس: 305726 ـ 522 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـــ لبنان

ص.ب.: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01750507 ـ 01352826
فاكس: 01343701 ـ 961+
cca_casa_bey@yahoo.com

إهداء

إلى زوجتي العزيزة/

التي تساندني دومًا على الكتابة، ثم تسائلني بعد كل كتابة:

قل لي ماكتبت.. أقل لك ما أنت!

المؤلف

- ولد في مدينة الرياض عام 1962 م.
- حاصل على بكالوريوس علوم من جامعة الملك سعود بالرياض عام 1986 م.
- والماجستير في سوسيولوجيا الثقافة من جامعة موسكو الحكومية التربوية عام 2002م.
- والدكتوراه في ذات التخصص ومن نفس الجامعة عام 2007م.
- سفير المملكة العربية السعودية لدى منظمة اليونسكو في باريس، منذ 2006 حتى الآن.
- صدر له كتاب «مذكرات بيروقراطي بالنيابة» عام 2000م، وكتاب «حكايات رجال» عام 2004 م، وكتاب «مكانة السلطات الأبوية في عصر العولمة» عام 2009م.
- نشر عدداً من المقالات الثقافية في عدد من المطبوعات السعودية والعربية منذ 1982 م حتى الآن.

www.ziadaldrees.com / ziadaldrees@hotmail.com

مدخل

يعد (سوسيولوجيا الثقافة) من التخصصات العلمية حديثة النشأة نسبياً، وخصوصاً في مدى انتشاره في العالم العربي وتوظيفه في تحليل الظواهر والخصائص الاجتماعية من منظور ثقافي. حيث يدرس (علم اجتماع الثقافة) العلاقة بين البنى الفوقية (الثقافة والإيديولوجية) والبنى التحتية (الأطر الاجتماعية) لمجتمع ما، من منطلق التأثير والتأثر التبادلي بينهما. **(انظر كتابي: مكانة السلطات الأبوية في عصر العولمة دراسة سوسيوثقافية، 2009م).**

وهذا الكتاب هو مجموعة مقالات تتماس، بشكل مبسط، مع سوسيولوجيا الثقافة كأداة لقراءة الظواهر الاجتماعية. قد يراه المختصون والأكاديميون تبسيطاً فائضاً، لكن ربما رآه آخرون من غير المختصين الحد الأدنى للتقاطع مع مفاهيم ودلالات هذه الأداة العلمية.

وقد تراوحت المقالات بين تناولات دينية وسياسية واقتصادية وذاتية، وربما تداخل أكثر من اهتمام في المقالة الواحدة أحياناً.

لم أشأ تذييل كل مقالة بمكان وتاريخ النشر، حتى تصبح الأفكار والرؤى فيها حرة وخالية من أي قيود زمكانية محددة.

شكرًا لكل من ساندني في إخراج هذا الكتاب.

زياد

باريس 2010م

لماذا ؟

الدين .. عود ثقاب العالم!

أدر مؤشر الأخبار، ستسمع: مباحثات سلام في السودان، ومباحثات سلام في بوروندي، ومباحثات سلام في سيريلانكا، ومباحثات سلام في كشمير، ومباحثات سلام في كوريا، ومباحثات سلام في هاييتي، ومباحثات سلام في أيرلندا، ومباحثات سلام في الشيشان، ومباحثات سلام في قبرص، ومباحثات سلام في البوسنة، وملايين من مباحثات السلام في فلسطين بالطبع وأفغانستان والعراق!

ما الذي يجري في الكون؟

كنت في طفولتي لا أعرف مشكلة في العالم سوى فلسطين، الآن أصبح العالم كله مشكلة! هل أنا الذي كبرت وازداد وعيي بما حولي، أم أن الحروب والنزاعات هي التي كبرت؟

في كل يوم تدفق فيه نقطة حبر واحدة في اتفاقية للسلام، تدفق عشر نقاط حبر في اتفاقية للسلاح، وتدفق ألف نقطة دم في حوار مسلح!

ما الذي يجري في الكون؟ يقتل المتمردون في عملية مفخخة عدداً من الناس هنا وهناك، ويقتل «عقلاء» الكون في عملية قصف

عشرات من الناس. أي أنك اليوم مُعرّض للقتل من لدن المجانين أو العقلاء، وإذا كان الموت سيأتي للبريء فسيّان عنده من يفعله.. مجنون أم عاقل!

كانت مبادرات السلام فيما بعد الحرب العالمية الثانية حالات استثنائية، الآن أصبح السلام هو الاستثناء، والمساعي للبحث عنه هو السائد. هل سيتحول الكون كله إلى «مشروع سلام»!

لست أفلاطونياً حتى أحلم بعالم دون دماء، لكني إنسان أحلم بعالم غير دموي.

كما إني لا أحلم بعالم ملائكي، لكني إنسان أحلم بعالم غير حيواني!

المفارقة العجيبة أن الدين، أي دين، دوماً ما يردد أتباعه أنه دعوة للسلام والتسامح والطمأنينة، في الحين الذي نبني معظم اقتتالنا واغتيالاتنا على الدين ومن أجل الدين.

بل حتى داخل النسيج الإسلامي نفسه تُستجلب النصوص الشرعية دوماً للحديث عن أهمية الوحدة الإسلامية، في الوقت نفسه الذي تستجلب فيه النصوص الشرعية أيضاً لتفريق الأمة وتجزئتها وتصنيفها.

وعلى نفس المنوال، يتكرر الخطاب الوحدوي والفعل التجزيئي دينياً في النسق المسيحي واليهودي!

فهل الأديان تدعو إلى السلام حقاً أم إلى الحرب، إلى التسامح أم إلى الخصومة، إلى الوحدة أم الفرقة، إلى المحبة أم العداوة، إلى

الماء أم الدماء؟!

في الإسلام مثلاً: عندما يقول الله عز وجل: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»، هل المقصود هنا العالمين المسلمين، أم العالمين كافة، الذي أسلم منهم والذي لم يسلم بما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من قيم تراحم وتعايش يفيد منها المسلم وغير المسلم؟

أتحدث هنا عن السلام في الدنيا، وليس السلام في الآخرة فذلك له موازين أخرى.

وبالمثل يمكن النظر إلى نصوص التوراة التي يبني عليها اليهود اليوم أكلهم لفلسطين وسحقهم لشعبها، ونصوص الإنجيل التي يبني عليها المسيحيون الإنجيليون في أمريكا اليوم مشروع أكلهم للعالم وسحقهم للشعوب!

إذا كان الدين يدعو إلى السلام والرحمة لأهله المنتمين له فقط، فهذا ليس جديداً ومتفرداً للدين، فكل نظام وعقد اجتماعي مهما كبر أو صغر، من الدولة وحتى الأسرة، يعطي أولوية السلام والتراحم لأهله قبل سواهم. وهذا سيقودنا إلى سؤال كبير، يكبر اليوم أكثر وأكثر: هل الدين يدعو إلى السلام لبني الإنسان كافة، أم إلى الحروب والاقتتال حتى لا يبقى في الكون سوى أتباعه؟!

أي أننا لو افترضنا وجود عالمين في كوننا هذا، أحدهما: كعالمنا هذا بأديانه وطوائفه ومذاهبه، والآخر عالم خال من الأديان، فأيهما أكثر أمناً وسلاماً واستقراراً؟ الإجابة البديهية التي رضعناها مع الفطرة هي أن العالم الخالي من الدين هو عالم موحش خاوٍ مأزوم عبثي،

لا قيم فيه ولا أخلاق تحكمه، إنه بإيجاز: «عالم سفاري»! هذه هي الإجابة البديهية النابعة من المفهومات الأساسية لوظائف الدين سوسيولوجياً، لكن المشاهد في العالم الآن هو أن الدين أصبح عود ثقاب نشعل به شرق الأرض وغربها.. حتى يشمت بنا الملحدون! ثم يجدون مبرراً لتمرير قناعاتهم وقوانينهم اللادينية التي تريد أن تحكم العالم اليوم في شؤون المال والجنس والنظم الاجتماعية.

هل أصبح حقًا نموذج الجزيرة المعزولة بدون أديان، أكثر أمنًا وسلامًا من أرض الأديان ومهبط الرسالات؟!

هل الدين حقاً عود ثقاب العالم، أم أننا نحن الذين أشعلناه ثم قذفناه في كومة قش العقول البشرية، بدلاً من أن نشعله ونستضيء به في ظلمات الحياة ودهاليزها.

أسئلة مخيفة، تذكروا قبل الإجابة عنها أننا نحن المسلمين نصلي كل يوم قائلين: اللهم أنت السلام ومنك السلام... يا رب.

العالم «كافر»

«1»

تغشى العالم موجة تكفير، لا تكتفي بمنح كل فرد من سكان الأرض لقب «كافر» لمرة واحدة فقط، بل إن كل إنسان يعيش على هذه الأرض هو (كافر) ثلاث أو أربع مرات. فهو مستحق للتكفير من دائرة كبرى «دينية» ثم وسطى «طائفية» ثم صغرى «مذهبية» ثم من دائرة صغيرة مجاورة «حزبية أو اجتماعية».. أكثر قرباً وأشد تكفيراً، لأن «كفر» ذوي القربى أشد مظاظة...!

والمؤكد، أنه كلما ازدادت موجة التدين في العالم ازدادت معها موجة التكفير، أي أنه كلما زاد عدد المؤمنين في هذا الكون زاد عدد الكافرين! ولن يخفى هنا التقاطع بين قوائم المؤمنين وقوائم الكافرين، إذ إن كل من يلتحق بإحدى القائمتين هو بالضرورة سيدخل تلقائياً في القائمة الأخرى.

والمفارقة هنا، هو أن ازدياد عدد المؤمنين لا يقلل من عدد

الكافرين، كما هو متوقع ومأمول، بل هو يزيد عدد الكافرين.. أيضاً عبر آلية «التراشق بالكفر»!

«2»

دعونا نتأمل في الحالة الإسلامية، التي تخصنا. فالقرآن الكريم الذي يصفه البعض بأنه هو المرجعية في إقصاء الناس وتكفيرهم، هو الذي يصف الله عز وجل فيه نفسه بأنه (هو الرحمن الرحيم)، (إن الله بالناس لرؤوف رحيم)، (كتب ربكم على نفسه الرحمة)، ثم إنه هو الذي يخاطب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)، ويصفه عليه الصلاة والسلام بأنه (بالمؤمنين رؤوف رحيم)، ثم إن القرآن الكريم يحث الناس عموماً: (وقولوا للناس حسناً).

فهل تكفير الناس وهدر دمائهم هو من (الرحمة) بالعالمين أو من قول (الحسنى) للناس؟! وهل يمكن لحيلة توسيع قائمة «إنكار المعلوم من الدين بالضرورة» أن تكون ذريعة لتكفير الناس، حتى على القضايا الخلافية الجزئية. وهل يُكفّر العوام على خوضهم في مسألة اختلف فيها العلماء أنفسهم؟!

وهل كان الذي أنكره فرعون من «غير المعلوم من الدين بالضرورة» حين أمر الله عز وجل موسى عليه السلام وأخاه (اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى). وهل كان الله تعالى وتقدّس، بعلمه الغيب، لا يعلم مآل فرعون ونهايته، أم أنه أراد، وهو

اللطيف بعباده، أن يبلّغ المؤمنين برسالة «القول الليّن» مع كل من هم مثل فرعون أو أقل طغياناً من فرعون.. بالضرورة.

«3»

التكفير له لذة ومتعة، لا يتخيلها إلا الذين ذاقوها. لذة الاستعلاء والبراءة والطهورية، فالتكفيري كلما كفّر إنساناً ازدادت قناعته بإيمانه وعلوّه وطمأنينته بالإخلاص والخلاص!

وقد تحدثّ عن هذه التجربة الشخصية بجلاء، التكفيري المصري عبدالله نهرو طنطاوي الذي بدأ تجربته بتكفير الناس الذين يرتكبون آثاماً من نوع: (الصلاة في المسجد «لأن الحكومة بنته» - دخول المدارس - الزواج - حمل بطاقات الهوية - مشاهدة التلفزيون - وأكل الذبائح المصرية). ثم توسعت مهارته التكفيرية كما يرويها بعد اعتقاله: (ذات مرة بدأنا النقاش في الزنزانة بعد صلاة المغرب جماعة وكنا ستة أشخاص، وحين جاء موعد صلاة العشاء كنا قد كفّرنا بعضنا بعضاً وصلى كل منا صلاة العشاء وحده)!

لكن طنطاوي لا يتوقف عند هذا الحد فحسب، مثلما أن التكفير لا يتوقف عن حدّ، فهو يسترجع أدبيات جماعة التكفير اللحظي، وهي التي تكفّر الأنبياء، تخيلوا (؟!)، وتقول إنهم كفروا للحظات، ومثال ذلك: أن النبي موسى حين ألقى الألواح بعد أن عبد قومه العجل كفر للحظات لأنه ألقى كلام الله على الأرض، والنبي إبراهيم حين قال:

فعلها كبيرهم هذا، وسيدنا آدم حين أكل من الشجرة، بل أيضاً النبي محمد صلى الله عليه وسلم في موقفه من أسرى بدر.

طنطاوي يستذكر متعة ولذة التكفير التي غادرها بعد توبته من جماعة التكفير.

«4»

مصدر أساسي من مصادر التكفير هي الفتاوى (المعدّة مسبقاً) أو (الجاهزة للتحضير)، وهي التي تضع بين يدي الشيخ أو المفتي سؤالاً مفخخاً بمفردات التهييج والتجريم والتهليك، حتى تتولد الفتوى المنتظرة والمأمولة كما أريد لها أن تكون. وفي الحديث الشريف (من قال هلك الناس فهو أهلَكهُم).

وفتاوى التكفير لا يصدها حين تُشتهى ضوابط التأويل أو مسائل الفروع والجزئيات الخلافية، فهي قادرة أن تبعج قائمة «المعلوم من الدين بالضرورة» لتضع فيها ما ليس بالضرورة! وقد قال الشوكاني مستنكراً تكفير المتأولين: «لو صح هذا لكان غالب من على ظهر البسيطة من المسلمين مرتدين».

«5»

آه.. لو أننا نستذكر دوماً المقولة الخالدة لأبي حامد الغزالي: (الخطأ في ترك ألف كافر في الحياة، أهون من الخطأ في سفك دم مسلم). وسأضيف: أو الخطأ في سفك دم إنسان بريء!

«سوسيولوجيا الدماء الدينية»

ثنائية المسيح / الحسين

تزامنت، في الأسبوع قبل الماضي، مناسبتان دينيتان: الكريسماس وعاشوراء. هذا التزامن أتاح للباحثين والمراقبين ملاحظة التقاطعات بين المضامين السوسيولوجية للفعاليتين الدينيتين، بجلاء أكثر. فالكريسماس، وإن كان هو ذكرى لمولد المسيح عليه السلام، إلا أنه تخليد وتكريس لحكاية صلب المسيح. وعاشوراء هي أيضاً، وبكل وضوح، ذكرى مقتل الحسين رضي الله عنه.

تتمحور الديانتان، المسيحية والتشيع، في حادثة جوهرية واحدة تم بناء كل عناصر الديانة عليها، ونفي هذه الحادثة أو التشكيك في بعض أحداثها يهدد كل أركان الديانة بالسقوط!

أؤكد قبلاً أن تناولي للحكايتين هنا لا ينطلق من منظور ديني بل من منظور سوسيولوجي لكيفية اقتحام حكاية الصلب والفداء المسيحي، مع بعض التعديل، في عقيدة طائفة مسلمة. فالثالوث المسيحي: الرب.. مريم العذراء.. المسيح، يقابله ثالوث شيعي مماثل له في

التمحور والتعظيم والقداسة المطلقة: علي.. فاطمة.. الحسين.

الدم الرمزي «النبيذ» الذي يشربه المسيحيون في الكنيسة تخليداً لدم المسيح، هو الدم الذي يسفكه الشيعة في عاشوراء من رؤوسهم وظهورهم تخليداً لدم الحسين. ينطلق المسيحيون في طقوسهم من نصوص مقدسة عندهم: «وكل شيء يتطهر حسب الناموس بالدم، وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة». (العبرانيين 9: 22). و«لأن نفس الجسد هي في الدم فأنا أعطيتكم إياه على المذبح للتكفير عن نفوسكم لأن الدم يكفّر عن النفس». (لاويين 17: 11).

هل اعتمد الشيعة على نفس النصوص لتبرير وتبجيل الاستدماء في يوم عاشوراء؟!

يقول المؤرخ حسن الأمين: «إنه كان في بلاد القفقاس مسيحيون يقومون بتعذيب أجسادهم فداء للسيد المسيح، وكان في القفقاس عدد قليل من الشيعة نقلوه إلى إيران عندما كانوا يذهبون لزيارة ضريح الإمام علي بن موسى الرضا».

وذكر الدكتور علي شريعتي أن وزير الشعائر الحسينية في ظل الحكم الصفوي بإيران قد ذهب إلى أوروبا الشرقية وأجرى هناك تحقيقات ودراسات واسعة حول المراسيم الدينية والطقوس المذهبية والمحافل الاجتماعية المسيحية وأساليب إحياء ذكرى شهداء المسيحية والوسائل المتبعة في ذلك، حتى أنماط الديكورات التي كانت تزين بها الكنائس في تلك المناسبات، واقتبس تلك المراسيم والطقوس وجاء بها إلى إيران بعد إجراء تعديلات عليها. وأضاف

شريعتي أن من بين تلك الطقوس: النعش الرمزي والضرب بالزناجيل والأقفال والتطبير (علي شريعتي: التدين العلوي والتدين الصفوي). وعلى غرار ذلك، فإن الشيعة في الهند أضافوا، حديثاً، طقساً جديداً إلى عذابات عاشوراء هو ظاهرة المشي على النار، وهو من إيحاءات سوسيولوجيا التدين الهندوسي، المجاور!

وكنت قد شاهدت قبل سنوات قليلة مقطع فيديو من احتفال عاشورائي لمجموعة من الشيعة المقيمين في لندن، ولم يلفت انتباهي حينها شيء من الطقوس، سوى الصورة المعلقة في جدار الصالة لإنسان حزين متألم، لو لم يكتب على الصورة اسم (الحسين عليه السلام) لجزمت بأنها صورة (المسيح عليه السلام) التي ألفناها في الكنائس. هكذا لم يتوقف التشابه والشبه بين المسيح والحسين عند حكاية موتهما وآلامهما وتضحياتهما، بل إن سوسيولوجيا المجتمع الإنكليزي البروتستانتي قد سكبت شيئاً من ملامح وتقاطيع ووقفة المسيح في صورة الحسين!

وفي ملمح آخر من التمحور الشيعي الكلي حول مقتل الحسين، يدعو الشيخ عباس النابلسي إلى إنشاء «أوبرا» عن عاشوراء، وتوظيف الغناء والموسيقى والمسرح والرسم وكل الأشكال الفنية «باعتبار عاشوراء قيمة كونية عالمية»! وتوشك أمنية النابلسي أن تتحقق، فقد أنتجت أخيراً مسرحية (قنسرين) التي وصفها منتجها بأنها «مسرحية تعرض للثورة الحسينية في إطار حركة الأديان السماوية، وخصوصاً التشابه الكبير بين حركة المسيح ومعاناته وتضحياته وبين حركة الإمام

الحسين (ع) وآلامه وتضحياته». وقد نسي هذا الفنان أو تناسى أن إيمانه، كمسلم، بصلب المسيح عليه السلام سيغضب عليه الحسين وجد الحسين عليه الصلاة والسلام، ولكنه التثاقف الذي يتسلل أحياناً إلى الذهنية الاجتماعية من دون وعي بالتناقضات المختبئة فيه!

* * *

يجب بأن نختم، تفادياً لأي فهم مغلوط!، بأننا نتحدث هنا عن سوسيولوجيا طقوس عاشوراء فقط وليس عن المذهب الشيعي. كما ننوه أن عدداً من حكماء وعلماء الشيعة، وقد استشهدنا ببعضهم آنفاً، قد كتبوا من قبل كثيراً منكرين الطقوس الدموية في عاشوراء، وأنها من الأمور المستحدثة في العهد الصفوي.

لكن سيظل من المشوق ومن المثير للاهتمام الاستقصائي البحث في كيفية تسلل هذه الطقوس المسيحية إلى المذهب الشيعي، من منظور سوسيولوجي مقارن لا يتوقف على هاتين الديانتين فقط، بل على ظواهر أخرى في ديانات أخرى؟!

«سوسيولوجيا الدماء الدينية»

الفهم المغلوط

(1)

(يجب أن نختم، تفادياً لأي فهم مغلوط، بأننا نتحدث هنا عن سوسيولوجيا طقوس عاشوراء فقط، وليس عن المذهب الشيعي. كما ننوه بأن عدداً من حكماء وعلماء الشيعة قد كتبوا من قبل كثيراً منكرين الطقوس الدموية في عاشوراء وأنها من الأمور المستحدثة في العهد الصفوي. لكن سيظل من المشوق ومن المثير للاهتمام الاستقصائي البحث في كيفية تسلل هذه الطقوس المسيحية إلى المذهب الشيعي، من منظور سوسيولوجي مقارن لا يتوقف على هاتين الديانتين فقط، بل على ظواهر أخرى في ديانات أخرى).

بهذا المقطع «التحويطي» ختمت مقالتي السابقة عن سوسيولوجيا الدماء الدينية: ثنائية المسيح / الحسين. حرصاً مني على تلافي أي فهم خاطئ لمضامين المقالة ومنطلقاتها، لكن هذا المقطع لم ينفع،

إذ وقع الفهم الخاطئ عند كثير من القراء الذين علقوا على المقالة هنا أو في مواقع أخرى عديدة نقلت المقالة أو عبر البريد الإلكتروني.

لكن من قال إن المقطع التحويطي لم ينفع؟! ربما نفع مع كثير من القراء الآخرين الذين صمتوا موافقين أكثر من الذين علقوا مخالفين له.

(2)

ليس أكثر سعادة للكاتب من أن يجد مقالته قد أثارت نقع النقاش والحوار والاختلاف. ولو أن الكاتب سيكتب مقالات يوافقه عليها الناس جميعاً فلا حاجة أن يكتب.. إذ لا جديد!

كتبت عن ثنائية المسيح / الحسين، وانتحال بعض الطقوس العاشورائية من الطقوس المسيحية، وكنت أتوقع أن يثير هذا غضب الشيعة، لكني فوجئت بأن المقال أغضب شيعة ومسيحيين معاً!

تنوعت التهم الموجهة إلى المقال من أنها طائفية وأنها تخدم حرب الحضارات وأنها لا تخلو من التوجيه السياسي المؤدلج. وهذه كلها تهم تتكلم عن النوايا والأغراض «المبطنة»، لذا فلا يمكن النقاش معها إلا بمنطق التبرؤ والتذرع.. وهذا منطق لا يسمن أولئك القراء ولا يغنيهم من جوع الشك والتشكيك!

بقي لزاماً عليّ أن أوضح إشكاليتين ربما أسهمتُ بنفسي، عن غير قصد، في جعلهما مأزقاً في طريق فهم مدلولاتهما.. واحدة شيعية وأخرى مسيحية.

(3)

كتب أحد المعلقين: «لفت انتباهي في مقالتك اليوم إيراد كلمة غريبة وهي (ديانة) في وصفك للشيعة. أنا لا أناقش هنا مضمون المقال ونمط تحليلك الذي أتفق معك في أغلبه ولدي الكثير لأضيفه بما يعزز وجهة نظرك، بحكم كوني سعودي شيعي، ولكن أن تصف التشيع بأنه دين وليس مذهبًا من مذاهب المسلمين حتى وإن اختلفت معه فأظن أن هذا أمر غريب، فأنت تجعلهم هنا خارج الدين الإسلامي. ولكني أكاد أجزم أن استخدامك لهذا المصطلح لم يكن مقصودًا منه ما أشرت إليه، بدليل أنك عدت في مواضع أخرى ووصفته بالمذهب».

وقد أجبت القارئ الكريم، وأجبت آخرين أثاروا نفس إشكالية المصطلح، بأنك ستلاحظ أني لم أقل (دين) بل قلت (ديانة)، وهي الوسيلة الوحيدة لوصف الدين المسيحي والمذهب الشيعي عند اقترانهما في المقالة بمفردة واحدة بدلاً من تكرار قول: دين ومذهب. ولا يخفى الفرق بين الدين والديانة كمصطلح، ومن هنا فاختياري لمصطلح ديانة ليس عبثاً، فالتشيع ديانة والتصوف ديانة والسلفية ديانة. الديانة هنا هي ما يدين به الإنسان من مفاهيم أو معتقدات كلية أو فرعية. لكني أتفق مع أولئك في خوفي من أن يفهم البعض استخدام (ديانة) هنا فهماً خاطئاً مما لا أقصده بتاتاً.

هذا بشأن الإشكال الشيعي، أما الإشكال المسيحي فقد وقع

في شأن ما قلته في المقالة بأن «الثالوث المسيحي: الرب.. مريم العذراء.. المسيح، يقابله ثالوث شيعي مماثل له في التمحور والتعظيم والقداسة المطلقة: علي.. فاطمة.. الحسين». وقد اعترض أكثر من مسيحي بأن الثالوث عندهم هو الرب والابن وروح القدس وليس مريم العذراء. ولم يغب عن بالي أقانيم عقيدة التثليث المسيحية، لكني لم أكن أتكلم عن التثليث بل عن الثالوث (الأشخاص) الذين يتمحور حولهم الوجدان المسيحي مثلما يتمحور الوجدان الشيعي حول الثالوث المماثل. ولو كنت أتكلم عن الثالوث العقدي لما صح لي أن أستبعد الله عز وجل ومحمد عليه الصلاة والسلام من الثالوث الشيعي!

(4)

بعيداً عن هذه المفاهيم الإشكالية التي ربما احتاجت إلى التوضيح الآنف، فقد شاركني العديد من القراء والأصدقاء متعة تلك الخاطرة الفذلكية في سوسيولوجيا (علم اجتماع) الأديان والمذاهب.

لكن لسوء الحظ أن توقيت هذه الفذلكة خاطئ ومربك في تفسير مضامينها، إذ يصعب التعاطي معها دون موقف سياسي أو أيديولوجي مسبق. فالكتابة عن التشيع أياً كان المناط سوف تقحمك في محرقة الطائفية المتهيجة الآن، مثلما أن الكتابة عن اليهود واليهودية سوف تشنقك بالتهمة العالمية (اللاسامية)، والكتابة عن التطرف والإرهاب

سوف تضعك في صف الامبريالية، مثلما أن نقد أمريكا وسجون جوانتانامو وأبو غريب سيدرجك فوراً في قائمة المطلوبين للعدالة ضد الإرهاب!

كتب أحد المعلقين على المقالة: «بصراحة مشكلتكم مع الشيعة ليس في بعض العادات الشيعية التي يقوم بها بعض الشيعة، ولكن المشكلة الأساسية أن إحياء ذكرى عاشوراء الحسين تستفزكم! وهذا يعني أنكم ترفضون إحياء الذكرى ولكن تستخدمون (التقية) حين تنتقدون بعض المظاهر التي يقوم بها بعض الأفراد القلائل في تجمع كبير وعظيم يشهده الملايين من الأشخاص. والغريب أن الشيعة يلطمون على صدورهم وليس على صدوركم فلماذا الانزعاج؟».

ويمكنني، على نفس المنوال، أن أجيب المعلق الكريم: بأنني أنا أيضاً «ألطم» على ورقتي وليس على ورقتك، فلماذا الانزعاج؟!.

إيران .. حين تلطم فرحاً

استمتعت بحضور فعاليات الأيام الثقافية الإيرانية مؤخرًا في مقر منظمة اليونسكو بباريس.

أثبتت تلك المعارض والأمسيات الثقافية والفنية، بثرائها وتنوعها وتعددية مصادرها وجذورها، أن إيران ليست صورة نمطية واحدة ومحدودة كما قد يظن الغرب... بل وبعض العرب!

لكن هناك حقيقة مربكة، موجزها أن إيران ليست مجرد دولة إسلامية، لم تكن قبل الإسلام شيئاً مذكوراً. بل كانت قبل مجيء الإسلام مهد الحضارة الفارسية بكل ما لها وما عليها من فصول أساسية في مجلد تاريخ البشرية.

هل هذه الحقيقة مربكة للمراقب العربي أو الغربي، أكثر مما هي مربكة للإيراني المسلم.. أو لنقل الآن: الفارسي المسلم؟!

هنا تنتثر كثير من الأسئلة المكرسة لحالة الإرباك:

-هل إيران دولة فارسية أم دولة إسلامية بالدرجة الأولى؟

-حسناً، هل يمكن الجمع بينهما من دون تناقض؟ وسنستحضر

هنا معركة القادسية، نموذجاً، كيف يتعاطى الدارس الإيراني معها وهي تتحدث عن المواجهة بين جيوش المسلمين وجيوش الفرس؟

-هل استطاع الإيراني أن يضع فاصلاً بين ما قبل وما بعد الإسلام؟

قد يقال أن هذه الحال مماثلة لوضعية العربي المسلم. بينما الفارق كبير بين الحالتين، فالعربي يعد نفسه وعاء الإسلام، وهذا ما جعل العرب ينسفون أو يحجّمون على الأقل كل ما قبل الإسلام بمفردة واحدة فقط فعلت فعلتها في الهوية العربية ما قبل الإسلام، تلك هي «الجاهلية»!

أصبح العربي لا يجد صفحة يعتز بها في مجلد تاريخ البشرية فيما قبل باب الإسلام، رغم أن الرسول محمد (صلّى الله عليه وسلّم) قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ما الذي حدث؟ ارتضى العربي الذوبان كلياً في هوية الإسلام، فأصبح العربي يعني المسلم.. هكذا ببساطة.

ولذا تكررت المواقف الكوميدية المحرجة للعرب غير المسلمين، حتى اليوم، إذ كيف يكون الإنسان عربياً وهو غير مسلم؟

(حكايات الكاتب نقولا زيادة لا تُنسى هنا).

الحالة التي يمكن مقارنتها ومقاربتها للحالة الإيرانية هي الحالة المصرية. فالأقباط في مصر لديهم التاريخ والحضارة الفرعونية قبل مجيء الإسلام، والرموز الفرعونية ما زالت هي الملاذ للثقافة والسياحة المصرية.

ما الذي حدث هنا؟ الشعب المصري/ القبطي أسلم وتعرّب في

ذات الوقت خلافاً للشعب الفارسي الذي أسلم ولم يتعرّب. هل كان عمرو بن العاص أقوى نفوذاً وتأثيراً من سعد بن أبي وقاص، أم أن الشعب الفارسي كان أكثر تمسكاً بفارسيته من تمسك المصري بقبطيته؟ المدهش أن الشعب المصري المسلم الآن، القبطي الفرعوني سابقاً، هو من أكثر الشعوب الإسلامية تديناً وتمسكاً بالطقوس الإسلامية، في غياب واضح للطقوس الفرعونية عن ساحة الممارسة المجتمعية، لا ساحة الاستذكار والتنقيب عن الآثار! رغم أن أصواتاً مصرية خافتة بدأت تتعالى الآن بالتساؤل: هل نحن أبناء حضارة عربية أم حضارة فرعونية؟

في إيران.. الحال مختلفة، والازدواجية قائمة، والتساؤلات المربكة تظهر وتختفي. في تلك الفعاليات الثقافية الإيرانية باليونسكو كانت التسمية الفارسية للفنون والمناشط تتداخل مع الروح الإسلامية.

في أحد فولكلورات الحفل الختامي كان هناك تداخل واضح بين الإيماءات الزرادشتية وطقوس اللطم الشيعي. صورة مصغرة للتنافس «الحميم» بين أكبر عيدين «طقسين» إيرانيين (عيد النيروز) و(يوم عاشوراء)، إنها ثنائية الفارسية / الإسلامية في أجلى صورها. وقد تجلّت أكثر ما تكون تلك الحالة الازدواجية المربكة قبل بضع سنوات عندما صادف، حسب التقويم الإيراني، يوم عيد النيروز في يوم عاشوراء. اجتمع عيدا الفرح (بالنيروز) والحزن (بمقتل الحسين) في ذات الوقت.. فكيف تلطم فرحاً؟! وقد تصدت مجموعة من علماء إيران باستصدار فتاوى توفيقية لحل ذلك الإشكال الميثولوجي!

نموذج مربك آخر، عندما هاجم الرئيس أحمدي نجاد، الإسلامي المتمسك، ومجموعة من علماء الحوزات في إيران، الفيلم الهوليوودي (300) الذي تناول فصلاً من فصول القتال الفارسي الإغريقي قبل مجيء الإسلام بأكثر من ألف عام. كان الموقف المتشنج للحكومة الإيرانية (الإسلامية) تجاه فيلم يتحدث عن الحقبة الفارسية الوثنية أمراً مربكاً بحق، إلى درجة إثارة سؤال، ربما يكون استفزازياً، إذ كيف سيكون موقف المشاهد الإيراني أمام شاشة سينما تعرض سعد بن أبي وقاص وكسرى وجهاً لوجه في فيلم عن معركة القادسية؟! إيران لديها ورقتان رابحتان: فارس والإسلام. وهي تستطيع توزيع اللعب بهاتين الورقتين في المكان والزمان المناسبين. فهي مثلاً قد لا تكون ورقتها الرابحة في مواجهة العرب هي الإسلام، إذ إنها لا يمكن أن تزايد على العرب بالإسلام، لكنها قد تزايد عليهم بالحضارة والعنفوان والجبروت الفارسي. أما ورقتها الرابحة أمام الغرب فهي الإسلام، إذ بهذه تستطيع أن تكسب تعاطف ودعم الشعوب العربية والإسلامية معها.

إيران تنافس الغرب براية الإسلام.. والعرب بالشكيمة الفارسية.

لكن العرب إزاء ورقتي اللعب الإيراني لا يعرفون هل هم يواجهون مدّ التشيّع أم زحف التفرّس؟!

مهما يكن من أمر، فإيران دولة عظيمة وثرية ومؤثرة، سواءً استخدمت هذه الورقة أو تلك.

ليس صعباً أن تلعب مع إيران، الأصعب أن تعرف بأي الأوراق ستلعب هي معك!

حزبنا الله ونعم الوكيل

لو أمكن لي أن أصف الزمن الذي نعيشه الآن لقلت إننا نعيش في أكثر الحقب اللادينية تديّناً!

كيف يمكن فهم هذا؟!

عصرنا هو الذي يوصف من البعض بأنه أكثر العصور انحلالاً وتفسخاً وطغياناً وتزندقاً. وهو ذاته الذي يوصف من البعض الآخر وأحياناً من «البعض» نفسه.. ويا للمفارقة، بأنه أكثر العصور تشدداً وتطرفاً وتعصباً وتحجّباً.

هل يمكن أن تجتمع هاتان الزمرتان من الصفات في مجتمع بشري واحد؟

الجواب، بكل تهور، نعم.

قد لا تتوافر هذه الصفات المتحاربة في إنسان واحد في آن، لكنها تتوافر في مجتمع واحد، بل ربما في أسرة واحدة. متى يكون هذا؟

عندما تتقلص وتنحسر الطبقة الوسطى في المجتمع، وهنا لا أعني المفهوم الاقتصادي الشائع للطبقة الوسطى، بل المفهوم الثقافي الاجتماعي. ولذا قد يكون من الأجدى عوضاً عن استخدام مسمى

الطبقة الوسطى، استخدام: الطبقة الوسطية، وهو مسمى ذو نكهة شرعية إسلامية رغم أننا هنا لا نتحدث عن الحالة الإسلامية فقط، بل عن حالة التدين واللاتدين العالمي.

تقلُّص وانحسار الطبقة «الوسطية» في المجتمع والأسرة البشريين أديا إلى بروز وهيمنة الطبقتين العليا والسفلى، أو اليمنى واليسرى من التفكير والشعور والمشاعر. ففي كل تخليق لمتطرف ديني جديد، يتم إزاءه أو ضده بالأصح، تخليق متطرف لا ديني. لأن التطرف، بشقيه، هو دوماً أكثر جاذبية وإبهاراً وترويجاً، وخصوصاً لدى فئة الشباب، من شخصية «الوسطي» الخامل المتعادل الأليف المألوف. إنها تماماً كالفارق بين أهازيج وعنفوان الفوز أو الخسارة في مسابقة، عندما نقارنها بأهازيج التعادل الهامسة أو الصامتة!

في المألوف أن ازدياد الدينيين يعني تناقص اللادينيين، لكن الواضح أن العلاقة بين تعدادهما طردية وليست عكسية، فالطبقتان تتوسعان الآن سوياً وإن كان ذلك بتعداد متفاوت لصالح الطبقة الأولى. السبب في تزايدهما الطردي أنهما في الغالب لا يقضمان من بعضهما، بل يقضم كل منهما من الطبقة الوسطية المستضعفة التي تتقلص كل يوم. فبروز المحافظين الجدد الإنجيليين الذين يقودون حروب العالم باسم الدين لم يردع المثليين والشواذ من المطالبة بحقوقهم في الزواج والعيش «الكريم»!

هذا الانشطار في الأدمغة بين الديني واللاديني، هو الذي جعل البعض يسمي عصرنا هذا بزمن التدين والتشدد، بينما يسميه آخرون من الضفة الأخرى بزمن الكفر والانحلال. كلا البعضين يسمي الزمن

نفسه بمسمى متناقض. إنها أشبه ما تكون بحالة التصالب البصري في المخ، حيث الجسم البصري الأيمن يغذي العين اليسرى، والجسم الأيسر يغذي العين اليمنى. وبالمثل فعين اليساري لا ترى إلا نفوذ اليمين، وعين اليميني لا ترى إلا امتداد اليسار.

في تقريرين شبه متزامنين للـ «بي بي سي» و«النيويورك تايمز» عن استفحال ظاهرة التدين الإسلامي في مصر، تناول التقرير الأول انتشار «زبيبة الصلاة» في جباه الشبان بعد أن كانت حكراً لزمن مضى على جباه الشيوخ والمسنين. وفي التقرير الثاني محاولة لتفسير لازمة «إن شاء الله» على ألسنة الشباب والفتيات بمسوغاتها، ومن دون مسوغاتها أحياناً كإجابة أحدهم «اسمي حسنين إن شاء الله»!

زبيبة الصلاة في جباه البعض لا تخفي جباهاً أخرى تركع في آنية المخدرات، وترديد «إن شاء الله» أيضاً لا يصم الآذان عن سماع ألسنة أخرى تهوى ترديد عبارات ومفردات أجنبية بحاجة ومن دون حاجة، و«كل حزب بما لديهم فرحون».

«زبيبة الصلاة» لا شك «إن شاء الله» أنها دليل على زحف متسارع للتدين، لكن السؤال الأهم: هل هو زحف على حساب الطبقة اللادينية أم هو على حساب الطبقة الوسطية المتآكلة يوماً بعد آخر؟!

العالم بحاجة حقاً إلى حبال دينية يتعلق بها من هوة المادية الرأسمالية الكاسرة الآن، لكننا رغم ذلك لا نريد لجباه الشباب أن «تتزبب» قبل أن تتحصرم!

أيها الوسطيون: إننا نعيش في زمن مباراة لا يراد لها التعادل!


كيف؟

كيف تُرتّب حملة انتخابية ..

للتنحي عن المنصب؟!

(1)

«التنحي» ثقافة، تختلف في الشرق عنها في الغرب. فهي عند الغربيين تعني: التخلي عن المنصب.. بسبب فشل إداري طارئ كحدوث كارثة تزعج المجتمع وتؤذيه، فيعلن المسؤول للشعب تنحيه عن منصبه كتضحية ومحاسبة للذات. ويمكن أن يكون التنحي بدون طارئ، ولكن استجابة لظروف زمنية تفرض التغيير.

في الشرق، وفي العالم العربي تحديدًا، إعلان «التنحي» يعني طلب المزيد من الوقت للبقاء في المنصب.. استجابة لضغوط شعبية تظهر بعد إعلان القرار!

حكايات «التنحي» في العالم العربي ليست كثيرة.. لأنها مجازفة خطيرة، لا يُقدم عليها إلا ذوو القلوب الصلبة التي تلوّح بشعار (الخطر مهنتي). فالمسؤول العربي يجب ألا يُقدم على إعلان التنحي

حتى يُعدّ فريق العمل اللازم، فإعلان التنحي هو عبارة عن إعادة ترشح، وبالتالي يجب إعداد حملة انتخابية للتنحي على غرار الحملة الانتخابية للترشح. ينبغي للمسؤول العربي عدم المجازفة بإعلان التنحي حتى يضمن اكتمال أدوات حملته الانتخابية، وأهمها أدوات الضغط على الشعب من أجل أن يقوم الشعب بالضغط على المسؤول بالعدول عن قراره!

(2)

من أشهر حكايات التنحي في التاريخ العربي الحديث، إعلان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر تنحيه عن رئاسة مصر بعد نكسة 67م. كان الشعب المصري والعربي في قمة احتقانه وغضبه، ليعلن عبد الناصر مسؤوليته عما حدث في الحرب، وتنحيه عن الرئاسة، فتخرج من يوم الغد الجماهير في مظاهرات حاشدة تطالبه بالعدول والبقاء والاستعداد للحرب القادمة معه، وبالفعل رضخ عبد الناصر لرغبة الجماهير واستمر في منصبه حتى توفاه الله.

تلك هي أشهر حكايات التنحي في العالم العربي وأكثرها وجدانية وتراجيدية. يليها في الشهرة، حكاية تنحي من نوع آخر، غير شرقي، وهو تنحي المشير عبدالرحمن سوار الذهب في عام 1986م عن رئاسة السودان، حيث تكاد تكون الحكاية العربية الوحيدة في التنحي بدون عودة أو عدول أو استجابة لضغوط، ولذا بقي (سوار الذهب) حتى الآن أيقونة عربية لا مثيل لها.

(3)

ساقنا اليوم للحديث عن حكايات التنحي، تربّص الجماهير العربية لما سيسفر عنه إعلان الرئيس الفلسطيني محمود عباس تنحيه عن منصبه، وعدم الترشح مجدداً في انتخابات يناير 2010م. الرئيس عباس أعلن تنحيه عن منصبه، ثم خرج من الغد في جولة على بلدات الضفة الغربية، حيث نقل التلفزيون الفلسطيني مشاهد لجماهير مصطفة في الشوارع تلوّح بالأعلام للرئيس وهي تهتف: (محمود عباس.. لا تتنحى أنت الأساس). أما أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية فأعلن أن اللجنة عبرت بالإجماع عن عدم موافقتها على توجه الرئيس عباس عدم الترشح من جديد. بينما صرح المتحدث الرسمي باسم حركة فتح أن (بديل محمود عباس هو أبو مازن وبديل أبو مازن هو محمود عباس، ولا يوجد لدينا استعداد للتفكير بأي شخص آخر)!

ومن الغريب أن يعلن الرئيس تنحيه قبل أن ينسق مع أمين السر ومع المتحدث الرسمي، حتى يمارسوا الضغوط عليه لثنيه عن الإعلان أصلاً!

لكن لو تم ثنيه عن الإعلان أصلاً، فكيف يمكن غسل الغضب والاحتقان الفلسطيني والعربي في أعقاب فضيحة تقرير غولدستون، دون (حقنة تنحي) مهدئة، ذات مفعول مشابه للحقنة المهدئة لنكسة 67م؟!

سوف ننتظر حتى موعد الانتخابات الرئاسية، لنقيّم حجم الضغوط الشعبية من الشعب الفلسطيني «المضغوط» أصلاً!

(4)

إعلانات التنحي لم تعد حكراً على السياسيين، فالمرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين مهدي عاكف كان قد أعلن تنحيه عن رئاسة الجماعة بعدم نيته تجديد ولايته بداية العام القادم. لكن عاكف الذي أصبح يجيد أدوات السياسة كلها، بما فيها لعبة التنحي، أعلن مؤخراً تراجعه عن قرار التنحي بسبب ضغوط كبيرة يواجهها من داخل الجماعة لحثه على عدم التنحي واستكمال واجباته تجاه الجماعة!

مرشد الإخوان المسلمين لا يستطيع أن يدفع بالجماهير الغاضبة من قراره إلى الشوارع، لأنه يرأس جماعة محظورة، والحل الوحيد يكمن في جمع الحشود في صالة مغلقة، لكننا بالطبع سننحرم من مشاهدة مسيرة جماهيرية أخرى في الشوارع العربية، غاضبة من قرار تنحي آخر!

(5)

بدأت الآن أفكر بأن أعلن في مقالتي القادمة عن (قراري بالتنحي عن الكتابة)! لكن ما يجعلني أتردد هو خوفي من العجز عن حشد الضغوط الكافية عليّ للعدول عن القرار.. ثم أتورط. وسأصبح

حينها أمام خيارين فقط: إما أن أتراجع عن قراري بدون ضغوط، وهو ما يشكل عيباً في الثقافة العربية. وإما أن أصر على قرار التنحي فأصبح أيقونة عربية أخرى مع المشير سوار الذهب.

سأفكر في الأمر وأقيس «الضغوط» قبل أن أعلن قرار التنحي أو عدمه في مقالة قادمة بإذن الله.

«كفاية» .. مش كفاية

مهما قيل عن النتوءات المصرية المتمثلة في: أخلاقيات الفهلوة وبازار الألقاب واقتصاديات البخشيش، والغرور المتواضع (الإنسان المصري أكثر العرب بساطة على المستوى الفردي، وأكثرهم اعتدادًا على المستوى الجمعي، يتبدى هذا في الإعلام المصري بشكل واضح حيث لا ترى فيه رغم الانبثاق الفضائي التعددي سوى الصلوات المصرية والفنون المصرية والمباريات المصرية والحوارات المصرية فقط!).

مهما قيل عن هذه السوسيولوجيا المصرية المتفردة، المزعجة للبعض والمسلية للبعض الآخر، فإنه لا يمكن إغفال الريادة المصرية في مجالات متعددة ومتنوعة على امتداد البروز العربي، فأبرز مقرئي القرآن الكريم عربيًا هم مصريون (المنشاوي وعبدالباسط)، وأبرز الدعاة والعلماء مصريون (الغزالي والشعراوي والقرضاوي)، وأبرز المطربين مصريون (أم كلثوم وعبدالحليم)، وأبرز الممثلين مصريون (لا يمكن حصرهم!) والنوبليون العرب الثلاثة مصريون (السادات

ومحفوظ وزويل).

آخر صرعات التفرد المصري هي حركة «كفاية»، تلك الكلمة الصغيرة المفخخة التي هزت الشارع المصري.. بل وشوارع عربية أخرى استهوتها صرخة «كفاية»... لكن بلهجاتها المحلية، وأعني تحديدًا شوارع «الجمهوريات الملكية» العربية!

اختار الشعب المصري أن يقول كفاية... طلبًا للتغيير. لكن هل يريد المصريون التغيير لمجرد التغيير، أم التغيير المشروط إلى الأفضل؟

من خلال عشرة أيام أمضيتها مؤخرًا في مصر، لم يكن شغلي الشاغل فيها وحديثي الفضولي مع سائق التاكسي والجرسون والبواب والبائع، سوى الرئيس المنتظر لمصر، الذي سيأتي على صهوة «كفاية»، بعد أن كان يأتي طوال السنين الماضية على صهوة 99.99 في المئة من الشعب المصري!

المفارقة هي أنني وجدت من مجمل حواراتي الشوارعية تلك أن 99 في المئة ممن حاورتهم يبدون رغبتهم في إعادة ترشيح مبارك رئيسًا لمصر. إذًا أين مفعول «كفاية» وأين الرغبة في التغيير؟!

الإجابة تكمن في الذهنية المصرية - والذهنية العربية عمومًا هنا لا تبتعد عنها - فالذين يأبون التغيير وينقضون حركة «كفاية» يستندون في موقفهم ذلك إلى أحد سببين، الأول: العشرة والعيش والملح، و«وجه تعرفه ولا وجه ما تعرفوش» و«ناس شبعت ولا ناس لسه عايزه تشبع!». وتتأجج هذه الطريقة العربية في التفكير، بالذات عند

الشعب المصري - العاطفي بطبعه - فهو لا يستطيع أن يتخيل أنه سيخون عِشرة ربع قرن مع «رئيس العمر» مبارك من أجل شخص آخر لم يعرفه إلا قبل أيام معدودة! هي طريقة ساذجة في التفكير بلا شك، إذ إن أبسط نقائضها هو أن القديم كان جديدًا في البدء، لكن التفسير العاطفي لا يلتفت عادة إلى حسابات منطقية جدلية، وإلا تحولت عملية التفكير تلك من غرفة الوجدان إلى غرفة العقل.

يعزز السبب الأول (العاطفي) في تقويض «كفاية»، سبب آخر معاضد له هو عدم وجود البديل المقنع للمجازفة بنسف العشرة والعيش والملح مع الرئيس/ الصديق: مبارك. فالمصريون لا يريدون التغيير فقط، بل يريدون التغيير المشروط إلى الأفضل، أي في حال غياب البديل الأفضل فإنه من المناسب تغييب التغيير إلى أجل آخر.

فالشعب ليس لديه الشجاعة والجرأة - وربما التهور! - للمجازفة بوضع يده في يد لم يعرفها ويمسسها من قبل. أدركت هذه النزعة في الشارع المصري حين طرحت اسماً غير الأسماء الهامشية المعلنة في الانتخابات الرئاسية. غرزت اسم عمرو موسى كمرشح مفترض للرئاسة المصرية، فكانت أصوات الرضا والتمني تأتي فورًا من تلك الشفاه المترددة من قبل. كان هذا الاسم الذي أطرحه باستدراج أمام معارضي التغيير وحاملي لواء «العشرة والعيش والملح» يُنسي العشرة ويذيب الملح!

كان اسم «الرئيس عمرو موسى» بالنسبة إلي هو الفخ الذي كشفت به موقف الشارع المصري من مرشحي الرئاسة المنافسين لمبارك. لم

يكن هذا الفخ مناقضًا كليًا لاستحقاقات «العِشرة» الانتخابية، فعمرو موسى أيضاً ليس نكرة في الساحة السياسية المصرية والعربية، وليس وجهًا جديدًا على الشعب المصري، كما أنه ليس اسماً يعرف في اللافتات الانتخابية للمرة الأولى. مؤدى ذلك أن عمرو موسى، فوق كفاءته وجدارته وسمعته البراقة في الشارع المصري، يملك أيضاً مثل مبارك استحقاق «العيش والملح» مع الشعب، ما يؤهله إلى اكتساح دوائر انتخابية عديدة لو ترشح للانتخابات.

موجز ذلك... أن حسني مبارك سيفوز - كما هو متوقع - ليس بجدارته فقط، بل بهامشية منافسيه أيضاً!

وها هي النكات المصرية تبدأ في تمهيد الطريق لمبارك نحو فترة رئاسية جديدة: «قالوا للريس مبارك قبل التصويت: مش حتقول خطبة تودع بها الشعب. قال لهم: ليه... هو الشعب رايح فين؟!».

الديموقراطية تؤمن دومًا بالتغيير المستمر، والعقل الوجداني لا يستسيغ التغيير المستمر بل يركن إلى العلاقات المتقادمة، والشعوب العربية وجدانية تستلبها العشرة ويأسرها العيش والملح، وبالتالي فهي لا تتحمل غلواء الديموقراطية وجبروت التغيير... وبالذات التغيير لأجل التغيير فقط، وليس التغيير المشروط إلى الأفضل.

إذا فاز مبارك هذه المرة بـ99 في المئة فليس السبب هو تزييف الانتخابات، بل زيف الديموقراطية!.

حركة.. (مش كفاية)!

(1)

يوجد في العالم العربي الآن حركتان تتنازعان الموقف الشعبي من توزيع المناصب واستحواذها، (حركة كفاية) وهي حركة حديثة النشأة في مصر، توجز دستورها وأهدافها في مفردة ملغومة واحدة هي (كفاية).

الحركة الثانية هي حركة (مش كفاية) وهي حركة ليست ذات شخصية اعتبارية كالحركة الأولى، لكنها هي الحركة الأقدم والأدوم.. ماضياً ومستقبلاً، في الثقافة العربية.

(مش كفاية) أقوى من (كفاية) بالطبع، لأنها مدعومة من أصحاب النفوذ والقرار. (كفاية) مسنودة بالعقل المدني.. و(مش كفاية) مسنودة بالوجدان الشعبي.. خصوصاً: «المبلّل» منه!

يستند أعضاء (كفاية) في دعواهم إلى إيجابية التغيير ودرء الواحدية التي عادة ما يعشش فيها الفساد. أما أعضاء (مش كفاية) فيستندون في دعواهم إلى منطق «ناس شبعت ولا ناس لسّه عايزه تشبع»، مع أننا لم

نسمع حتى الآن بظهور ذلك الكائن الخرافي: المسؤول الذي شبع!

(2)

يطفو أعضاء حركة (مش كفاية) على السطح، عندما يعلن مسؤول عربي رغبته التنحي عن منصبه. يخرج الأعضاء في وسائل الإعلام والشوارع حاملين لافتات (مش كفاية) و(أنت الزعيم،، لا بديل لك) و(مَن للشعب من بعدك؟)، وما سواها من عبارات الفقد والوجد واليتم والترمّل والتثكّل! وقد أشرت في مقالتي السابقة: (كيف ترتب حملة انتخابية.. للتنحي عن المنصب)، إلى الآلية التي يتخذها المسؤولون لإعلان التنحي عن المنصب بوصفه شكلاً آخر من أشكال إعادة الترشح. وقد لفت انتباهي التعليق الذي كتبه الصديق الدكتور سعد البازعي على المقالة حين أشار إلى أن «المأساة قد لا تكون في تمثيليات التنحي، بل في أن الرغبة الجماهيرية في عدم التنحي قد تكون فعلاً رغبة صادقة، وعندئذ سنواجه مأساة أكبر من مأساة فرد يتظاهر بعدم الرغبة في الاستمرار في الزعامة. قد نواجه مأساة شعوب لا تعرف كيف تقبل تنحي بعض زعمائها أو لا تجرؤ على قبول ذلك التنحي!». البازعي يلفتنا إلى إشكالية لم نعطها الاهتمام الكافي وهي أن المشكلة ليست دومًا في حربائية الزعيم بل في أرنبية الشعب. وما دمنا دخلنا في مملكة الحرباء والأرنب وأخواتها، فلن نجد أفضل وصفاً مخادعاً وساخراً لهذه اللعبة من أحداث جورج أورويل في

روايته الفذة (مزرعة الحيوان)، فارجعوا إليها.

(3)

ولأن المسؤول في الثقافة العربية تعلو قيمته ويرتفع ثمنه بالتقادم، فقد كان من المفارقات التي يمكن إدراجها ضمن سوسيولوجيا الثقافة، الموقف الانتخابي للوزير المصري فاروق حسني في انتخابات منصب مدير عام منظمة اليونسكو.

كان فريق الحملة الانتخابية يبرز في سيرة المرشح العربي أنه وزير ثقافة منذ أكثر من 20 عاماً، وكنا نرى نحن العرب أن هذه الميزة وحدها كافية لجعله الأجدر بالمنصب. ولم نكن نعلم أن هذه «الميزة» التي نفخر بها هي «العيب» الذي يجب أن نخفر منه. فإذا كان بقاء المسؤول في منصبة الوزاري أكثر من عشرين عاماً هو دليل تفوق وامتياز في المنظور العربي، فإن هذا يُعدّ في الثقافة الغربية مؤشراً غير إيجابي وغير مريح للتعامل مع المسؤول المرشح، ولذا فقد كنا نروّج لمرشحنا العربي، بكل براءة شرقية، ما يصّد عنه الناخبين!

تنوّع المفاهيم الثقافية للمجتمعات يبلغ أحياناً حدّاً كوميدياً.

(4)

من أكثر المعلومات دهشة للقارئ العربي، هي أن الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز، الذي أشغل الدارسين والباحثين بسيرته الحافلة،

لم تطل خلافته أكثر من عامين ونصف فقط (من عام 99 حتى 101 هجرية). ولطالما أسهبت المصنفات التاريخية في وصف مدة خلافته الحاشدة بالإنجازات.

لم يستمهل الخليفة الراشد الناس إلى المئة يوم الأولى ليحكموا على أدائه، بل ربما حكموا عليه ولمسوا أثره وفعاليته من المئة دقيقة الأولى.

إذاً فقيمة المسؤول ليست بالتقادم إلا في (جمهوريات الفوز) العربية!

(5)

في مقالتي قبل السابقة، أعلنت بأني أفكر بالتنحي عن الكتابة، على غرار إعلانات التنحي المسلّية. وقد ربطت إصراري أو عدولي عن قرار التنحي بحجم «الضغوط» التي سأتلقاها، شاكراً، من الجمهور الكريم!

وإنني إذ وجدت أن ضغوط (مش كفاية) عليّ أشد وقعاً ولذة من ضغوط (كفاية)، فإنني أعدكم بالاستمرار على العهد والوعد.. وفقاً لدستور «الحياة» الخالد!.

ثقافة... البيان رقم 1

حين وقعت الأحداث الدرامية المقززة، في مدينة غزة، أمس الأول، بعد إعلان غزة إمارة إسلامية، استحضرت في ذهني فوراً المقالة التي كتبها المفكر محمد جابر الأنصاري، قبل أسبوعين، داعياً كل عربي إلى أن (يصلح ما تصل إليه كل يده)، وأن الإحباط الذي يسود المحيط العربي هو بسبب عجز وغموض مصيره، واعتماد العربي، ليس على نفسه، وإنما على القرار من أعلى أو... انتظار البيان رقم (1) من الإذاعة.

ما قام به أفراد الجماعة السلفية الجهادية في غزة يؤكد الانطباع السائد بأن ما تصل إليه يد العربي ليصلحه، هو للأسف كرسي الحكم فقط!

العربي لا يجيد إلا إصلاح كراسي الحكم، سمكرتها.. شدّ مساميرها المرتخية وتجديد طلائها كل حين.

العربي إنسان طموح، فهو إذا مد يده للإصلاح والتصليح فإنه لا يصلح كراسي بيته فقط أو كراسي حارتهم (كراسي المدرسة أو

المسجد أو المستشفى). بل هو يمد يده مباشرة لإصلاح كرسي الحكم، لأنه يؤمن بالنظرية السياسية التي تقول إن إصلاح كرسي الحكم كفيل بإصلاح كراسي البيت والحارة والبلدة. لكنه ينسى نسقًا آخر للإصلاح السياسي يقول: (كما تكونوا يولّ عليكم).

قام خطيب الجماعة الجهادية في غزة ليعلن من على منبر الجمعة، البيان رقم (1)، تماماً كما تنبأ الأنصاري لطبائع انتظار العربي.

ولادة البيان رقم (1) في غزة تحديداً من بين مدن فلسطين الأخرى يثير تساؤلات وتعجبات، إذا لم تكن تراجيدية فهي كوميدية.

لماذا غزة بالذات، معقل «حماس» المتهمة بالتطرف الإسلامي؟

لم لَم يكن في رام الله، معقل «فتح» المتهمة بالتطرف العلماني؟!

هل أغرى الجهاديين طعم «المزايدة»، فاختاروا غزة «حماس» دون سواها؟ كانوا سيجدون في رام الله أشياء لأسلمتها أكثر من المايوهات الإسلامية في شواطئ غزة!

إذاً ما الحكاية؟!

الحكاية.. أن العالم العربي يعج بحركات وأيديولوجيات متعددة، لكنها بسبب تخلفه الحضاري وارتباكه المعرفي، تصبح هذه التعددية تصادمية متناقضة، لا تعددية تنوع. فالإسلامي يسعى إلى أسلمة الليبرالي، لكن هذا الإسلامي نفسه هناك خلفه من يريد أسلمته لأنه ليبرالي مغرر، والليبرالي خلفه من يريد لبرلته لأنه إسلامي أو تراثي ملتبس!

الكل يريد أن يغير الآخر، وكل عربي يأمل بأن يغير كل العرب

ليصبحوا مثله حتى تتحقق النهضة العربية المعلقة بأهداب المصلح الوحيد.

العرب لا يلتفتون إلى إصـــلاح ذواتهم وأبنائهم وأسرهم، لأنهم منشغلون بإصلاح ذوات الآخرين وأبنائهم وأسرهم.

في الصين.. رأيت الناس طوائف وأعراقًا ولغات متنافرة، كما أن معظمهم ليسوا على وفاق مع حكومتهم ومسؤوليهم، لكن هذا لا يمنعهم من صرف معظم وقتهم وجهدهم في تقويم العمل الفردي وزيادة فاعليته. هم لا يرمون النفايات في الشوارع حتى يقولوا إن الحكومة مقصرة في أعمال النظافة، كما لا يخربون المنشآت والتجهيزات حتى يؤكدوا أن الحكومة متخاذلة في أعمال الصيانة. الإنسان الصيني يقوم بأسباب الوقاية من الالتجاء إلى سب الحكومة، ليس حباً بها ولكن حباً بوطنه ووقته وجهده الذي يصرفه في (إصلاح ما تصل إليه يده). وما لا تصل إليه أيدي الشعب المتقابلة والمتداخلة ستصبح مساحة محدودة هي مسؤولية الحكومة.

ولأن يد الإنسان العربي (طويلة) يتعذر عليه حنيها داخل بيته وذويه، فإنها تمتد دوماً لإصلاح الآخرين البعيدين الذين يصلحون كرسي الإصلاح دوماً.. في انتظار البيان رقم (1).

(الخطاب الثوري) و (الخطاب البقري)!

(1)

سيطرت على العالم العربي في النصف الأول من القرن العشرين موجة (الخطاب الثوري)، متزامنة مع أحداث الحربين العالميتين الأولى والثانية، ومغادرة الاستعمار وإعلانات الاستقلال العربية المتوالية.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين بدأت مؤشرات نشوء ما يمكن تسميته (الخطاب البقري)، الذي أتى انعكاساً للاستقرار القُطْري «النسبي» آنذاك، ثم الاحباط الفلسطيني المفرط والمستنفد لجدوى أي خطاب ثوري، ثم الانشغال بالوفرة المالية جراء النفط أو بالشح المالي جراء الفساد.

هذا ما كان في القرن العشرين. فماذا عن القرن الواحد والعشرين الذي ندخل العقد الثاني منه الآن؟

ما زالت الصورة غير واضحة، والتجاذبات بين الخطاب الثوري والخطاب البقري تزداد شدة وحدة مع كل أزمة عربية جديدة. وقد

شهدنا، عقب الاعتداء الإسرائيلي على قافلة الحرية، كيف امتلأت الفضائيات والصحف العربية بمقالات ثورية ومقالات بقرية.

(2)

لنتناول هنا بعض الخصائص المميزة لكلّ من الخطابين الثوري والبقري:

الخطاب الثوري لا يجيد التعامل مع الأعداء..

الخطاب البقري لا يجيد التعامل مع الأهل والأصدقاء.

الخطاب الثوري يستعجل النتائج حتى يفسدها أحياناً..

الخطاب البقري لا ينتظر نتائج أصلاً!

الخطاب الثوري لديه هدف يريد أن يصل إليه، بغض النظر عن الوسائل.. إن كانت مناسبة أو غير مناسبة.

الخطاب البقري لديه وسائل يريد أن يستعملها، بغض النظر عن الأهداف.. تحققت أم لم تتحقق!

الخطاب الثوري ينطح بقرنيه كل من يختلف معه..

الخطاب البقري ينطح كل من يختلف معه بقرني ثور الأعداء!

الخطاب الثوري حين يهيج يأكل الأخضر واليابس..

الخطاب البقري بهدوئه البراغماتي النفعي يأكل الأخضر فقط!

الخطاب الثوري تتحكم به العاطفة أكثر من العقل..

الخطاب البقري لا تتحكم به العاطفة، لأنه خالٍ من العواطف!

الخطاب الثوري يعتقد أن النضال والكفاح هما السبيل الوحيد لاسترداد كل الحقوق..

الخطاب البقري يعتقد أن النضال والكفاح هما السبب الأوحد لضياع حقوقنا، ومن أجل هذا فهو يكره النضال والمناضلين.

الخطاب الثوري هو ملاذ المستضعفين..

الخطاب البقري ملاذ الضعفاء!

الخطاب الثوري يوظف القومية والإسلاموية من أجل تمرير رسائله إلى الحس الشعبي الثائر / المثوّر!

الخطاب البقري يستخدم الهدوء وضبط النفس والعقلانية المفتعلة من أجل «بقَر» كل محاولة ثورية قد تأكل الأخضر واليابس.

الخطاب الثوري يهتم بالقيم، بينما الخطاب البقري يركز على المصالح.. والقيم بلا مصالح لا تؤكل عيشاً، والمصالح بلا قيم تؤكل عيشاً متعفناً.

(3)

دعونا الآن نتحدث عن التلاوم بين أصحاب الخطابين:

ينسى أصحاب الخطاب البقري، حين ينقمون على الخطاب الثوري، أن الحضارة الغربية المعاصرة التي ينحاز إليها الخطاب البقري دوماً، لم تقم وتكتمل إلا بعد مبادرات وأفكار وخطابات ثورية، أسست لما عليه الغرب الآن. بل ينسى هؤلاء أن الدول العربية

نفسها، التي يدافع أصحاب الخطاب البقري عن صالحها وطالحها، لم تتشكل وتتكون إلا بشرارة ثورية كانت هي الأساس لقيام الدولة الحديثة، مهما تنوعت وتجملت مسميات تلك الشرارة الثورية!

في المقابل، فإن أصحاب الخطاب الثوري أيضاً ينسون أو يتناسون أن الغرب لو استمر على منوال الحراك الثوري الذي ابتدأ به لما استطاع أن يصل إلى شكل الدولة الحديثة الآن، وأن الدول العربية التي بدأت بثورة كالأخريات، لكنها استمرت حتى اليوم تتخذ لبوس الثورة ومعطياتها، فإنها بقيت كما نراها أكثر الدول العربية تخلفاً وفساداً.

الدولة، أية دولة، يجب أن توازن بين الخطاب الثوري والخطاب البقري، فاستخدام الثور في حال الرخاء مثل سوء استخدام البقرة في حال الشدة!

ولو أُخليت الحظيرة من الثيران لما توالدت الأبقار... ولو أُخليت من الأبقار لما تكاثرت الثيران.

(4)

يا معشر السياسيين والكتّاب... حظيرتنا بحاجة الى الخطاب الثوري والخطاب البقري، كلّ في وقته المناسب..

خطاب «ثوري» في حظيرة الكاوبوي

(1)

لم أكن ثورياً بما فيه الكفاية، حين كتبت مقالتي السابقة (الخطاب الثوري والخطاب البقري). لكنني، للحق، لم أكن خالياً من التحيز الثوري. أقول هذا للذين بذلوا جهداً في كشف تحيزي، بيد أنني كنت أنشد الحياد النسبي ولم أدّع الحياد المطلق.

وليس جديداً القول بأنه مثلما هناك ثوريون وهناك بقريون، فإن الإنسان نفسه يتقلب بين أطوار ثورية وأطوار بقرية في أزمنة حياته. تتحكم في هذه التحولات: الهرمونات والوضع الأسري والحالة المادية والطموحات والشللية (الرفقاء) والريموت كنترول (لاختيار القناة الفضائية الإخبارية!).

في سن الشباب، يكون الصراع محتدماً بين الهرمونات (حافز الخطاب الثوري) والطموحات (حافز الخطاب البقري). تكون جولات لحسم المعركة بين الخطابين، فيتشكل صلصال الإنسان الثوري أو البقري في تلك الفترة العمرية الطرية.

في سن الشيخوخة، تنضب الهرمونات وتتوقف الطموحات، فيصبح الصراع بين الخطابين الثوري والبقري صراعاً من أجل البقاء.. وليس الانتصار!.

(2)

تاه الإنسان العربي بين التثوير والتخدير (التبقير). فقد عاش العالم العربي في الخمسينات والستينات والسبعينات تحت «عويل» الخطاب الثوري، فلم يجن شيئاً طوال ثلاثين سنة من شعارات الكفاح والنضال والصمود والتصدي. لكنه أيضاً جرب العيش تحت «هديل» الخطاب البقري ثلاثين سنة مماثلة، في الثمانينات والتسعينات ومطلع الألفية الجديدة، ولم يجنِ من معاهدات السلام والعقلانية والبراغماتية وكيمياء التفاوض والجلوس على طاولات المحادثات سوى المزيد من الخسائر والتنازلات والضعف والهوان.

على الأقل يُحسب للخطاب الثوري، ما كان يحسب عليه، من استحلاب العواطف. إذ مع الزمن وجد الإنسان العربي أن استحلاب واستجلاب العواطف خير من تجميدها.. بانتظار العقل، الذي يأتي ولا يأتي!

(3)

رجب طيب أردوغان وهيلين توماس، كانا في الأيام الماضية

نموذجين للخطاب الثوري.. المنتفع والمتضرر.

أردوغان، اكتسب شعبية كاسحة من موقفه تجاه «أسطول الحرية»، ليست شعبية تركية فحسب بل عربية وإسلامية، جعلته رمزاً للكرامة الغائبة منذ زمن طويل.

انتفاع أردوغان من موقفه وخطابه الثوري في اكتساب الشعبية الجماهيرية لا ينتقص أبداً من موقفه النبيل، رغم تعمد بعض ذوي (الخطاب البقري) الخلط بين أردوغان وأحمدي نجاد، متناسين الفارق بين «ثورية» أردوغان.. و«ثوارة» نجاد!

هيلين توماس تضررت من تصريحاتها الثورية تجاه إسرائيل. ورغم أن الضرر جاء متأخراً، وهي على مشارف التسعين من عمرها، إذ لم يعد مكان للضرر أو الألم (!)، إلا أنه لا يمكن التغاضي عن حالتها وتركها في العراء الصهيوني وحدها تكابد آلام الحقيقة.

جاءت تصريحات الصحافية الأميركية العريقة لتؤكد خرافة الحياد وحرية التعبير في الإعلام الغربي، حين يتعلق النقاش بالمسألة اليهودية وإسرائيل.

لم تدعُ هيلين توماس إلى إخراج اليهود من فلسطين ورميهم في البحر، لتُتَّهم بأنها عنصرية ولاسامية، لكنها دعت إلى إخراج اليهود من فلسطين وإعادتهم إلى بلدانهم الأصلية التي هاجروا منها.. فأين العنصرية؟!

في كل يوم، تنطلق من مختلف دول أوروبا دعوات يمينية لطرد المهاجرين المغاربة والأفارقة من الدول الأوروبية، والمطالبة

بإعادتهم إلى بلدانهم الأصلية. لماذا لم يتعرض أحد من هؤلاء الصحافيين أو البرلمانيين الأوروبيين للمحاسبة أو الطرد من وظيفته أو حتى التوبيخ على تصريحاته «العنصرية».. بحسب المعيار الغربي/ اليهودي؟!

اغفروا لي هذا السؤال (الثوري).. فقد جفت الهرمونات والطموحات، أو كادت!.

الشرق الأوسط.. الغرب الأوسط!

(1)

نشأنا على تسمية العالم لنا بـ «الشرق الأوسط»... ولا يعلم الكثير منا: لماذا نحن شرق؟ ولماذا نحن أوسط في ذلك الشرق؟!

وإذا كنا، نحن الذين نقع في وسط خريطة العالم، شرق.. فماذا تبقى للغرب كي يقتطعه من الخريطة؟

عندما توجّه مراسل «وكالة أنباء الشرق الأوسط» بسؤال إلى وزير الخارجية الإيراني، ضمن مؤتمره الصحافي، علق الوزير على مسمى الوكالة بقوله: الشرق الأوسط أم الغرب الأوسط؟

التساؤل الإيراني الماكر يمكن أن يحمل وجهين للتفسير: أحدهما التلميح إلى الموقف العربي من الأحداث الإيرانية، المتوافق في مجمله مع الموقف الغربي، وهو التفسير الأقرب والأشهى خصوصًا لبعض وسائل الإعلام العربية. التفسير الثاني، وهو الأشهى خصوصًا لي!، هو حول إشكالية المسمى التي قد تعصف بها تحولات سياسية قادمة.

لا أعرف متى بدأ العالم يسمينا (الشرق الأوسط)، ولا من الذي جاء بالتسمية، لكن المؤكد أن التسمية جاءتنا من الغرب الأقصى. فمن توزيعات الخريطة العالمية السياسية: يبدو أن أميركا هي التي سمّت العالم كله الشرق وهي الغرب وحدها، أما وسط العالم فهو المحيط الأطلسي الذي يفصل بين الغرب (أميركا) والشرق (بقية العالم).

ولأن كل ما على يمين أميركا في الخريطة هو شرق، فقد تمّ تقسيمه، تسهيلاً للطالب الأميركي في مادة الجغرافيا!، إلى شرق أقصى وشرق أوسط وشرق أدنى.

ولو أن المسميات أطلقت على بقع العالم من دون نوازع وهيمنات سياسية لأصبحت الصين واليابان والهند وما جاورها هي الشرق (أقصى وأدنى)، وأصبحت أميركا وبعض أطراف أوروبا وأفريقيا المتاخمة للمحيط الأطلسي هي الغرب (أقصى وأدنى). وأصبحت الجزيرة العربية (بلاد العرب) بدولها المتاخمة لها شمالاً وجنوباً هي (وسط العالم).

هكذا تقول خريطة العالم التي لا يمكن تغييرها بحسب تحولات الهيمنة السياسية والعسكرية. ولو صح ذلك للمتنفذين في كل عصر لكانت أوروبا في القرون الماضية موضوعة في وسط خريطة العالم، وقذفت بلاد العرب عند الأطراف المتدلية من أميركا الجنوبية! أو لكانت أميركا الآن هي المهيمنة على وسط الخريطة، وبجوارها فقط دولة واحدة هي إسرائيل (الطفل المدلل)، أما بقية دول بلاد العرب

فسيقوم رسّام الخريطة بإزالتها بالممحاة!

خريطة الجغرافيا لا تتغير بتغير خريطة القوى، التي تتلاعب إذ ذاك بالمسميات فنصبح نحن (الشرق الأوسط) كما الآن.

(2)

إذا كانت تهديدات الهيمنة الصينية القادمة على العالم واقعية ووشيكة، فسيصبح مدرس الجغرافيا في الصين هو صاحب اليد الطولى في تسميات بقع العالم. وبما أن الصين هي شرق العالم فسيصبح كل ما بقي من خريطة العالم (غرب). وعندئذ ستصبح الهند والباكستان وإيران هي الغرب الأدنى، وستصبح أميركا هي الغرب الأقصى. وسنصبح نحن، بلاد العرب (الغرب الأوسط) بدلاً من الشرق الأوسط.

في عصر الهيمنة الصينية، ستصبح لدينا «وكالة أنباء الغرب الأوسط» وصحيفة «الغرب الأوسط» و«طيران الغرب الأوسط». وعندما يتم أي تفجير إرهابي في أي مكان من العالم سيقال في نشرات الأخبار: (وقد اشتبه في شاب ذي ملامح غرب أوسطية شوهد قرب مكان التفجير)!

(3)

إذا أصبح قرار العرب بيد العرب فلن نصبح الشرق الأوسط ولا

الغرب الأوسط، بل العالم الأوسط.

النكتة

كل عربي «جديد» يريد أن يتعلم السياسة، لا بد أن يكون الدرس الأول له هو: (الصراع العربي - الإسرائيلي)، وقد يتطلب منه هذا فصلاً دراسياً كاملاً وليس درساً أول فقط. ثم تلي الدروس الأخرى: العراق - لبنان - الجزائر - السودان - اليمن، ولا تخلو أي دولة عربية من دروس متقطعة، تنزل في البرنامج الدراسي/ السياسي للطالب العربي حسب ظروف المنطقة واحتياجات الطلاب لدروس خصوصية!

سيكون من ضمن الدروس الأساسية بالطبع مادة عن «مصطلحات الهزيمة»، يتعلم فيها الطالب معاني النكبة والنكسة والعدوان وحرب الاستنزاف والاتفاق والمعاهدة وغيرها.

وقد مرت في الأيام الماضية الذكرى الستون لإنشاء دولة إسرائيل، احتفل نصف العالم «المنتصر» بقيام دولة الوعد.. في حين أحيا نصف العالم «المهزوم» ذكرى قيام دولة الوعيد!

قبل ستين عاماً كان الدرس الأول: (النكبة).

نشأ جيل عربي كامل منذ 1948 يمكن تسميته جيل النكبة، لم يبرأ من الهزيمة الداخلية التي صبغت سلوكه السياسي والثقافي والاجتماعي بأعراض النكبة، التي فيما كان يؤمل أن تخف مع الوقت، فإذا بالجيل العربي التالي يصاب بنكسة 1967!

بين النكبة والنكسة كانت محاولات طفيفة للاستطباب، لكن بعد النكسة تفاقمت حمى الهزيمة على الجسد العربي المريض، ولذا كان لا بد أخيراً من اللجوء إلى المهدئات والحلول الجزئية والمؤقتة، التي لا تزيل «المرض» لكنها تخفف أعراضه.

كانت مفاوضات السلام العربي - الإسرائيلي هي «العلاج الكيماوي» الذي سيزيل بعض الخلايا السرطانية، لكنه بالطبع سيغير ملامح الجسد... اللون... الشعر... والرونق، في الوقت ذاته الذي قد لا ينجح في منع الخلايا السرطانية الأخرى الحية من الفتك بالجسد المنهك.

لا بأس... إذ لا خيار!

لكن «السلام» نفسه لم يكن أقل وجعاً على الفلسطينيين والعرب من الهزيمة. لم يكن السلام سلاماً لأن «المفاوضات قد بنيت على سلسلة من الأخطاء، لا يمكن إنقاذ المفاوضات إلا بإزالتها. والأخطاء التي فرضها الأقوياء وقبلها الضعفاء، فرضتها الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل، وقبلها الفلسطينيون والعرب وحتى الأوروبيون. ويمكن لسياسة الفرض أن تقود إلى طاولة المفاوضات، لكنها لا يمكن أن تنتج حلولاً واتفاقات، وإذا حدث وأنتجت حلولاً واتفاقات مفروضة

بدورها، فإنها لا تنتج سلاماً، وإنما يهيئ السلام المغشوش لحروب أشد ضراوة». (بلال الحسن: «قراءات في المشهد الفلسطيني»).

مرت على مفاوضات السلام الثنائية والمتعددة بين العرب وإسرائيل سنوات طويلة، وتعاقبت عليها حكومات أميركية متفاوتة (جمهوريون - ديموقراطيون - محافظون جدد)، وحكومات إسرائيلية متنوعة (الليكود - العمل - كاديما)، ومسميات جذابة لمدن ومنتجعات ومزارع تقام فيها جولات السلام/ الحربي!

إذاً مرّ طلاب السياسة العرب بثلاثة دروس اصطلاحية: النكبة... بقيام إسرائيل، والنكسة... باحتلال القدس، والنكثة... بوعود السلام الموعود.

تفاوتت تأثيرات هذه الدروس «الليلية» الكئيبة على حال النفس العربية، فإذا كانت النكبة قد مهدت لقدوم الشعور بالقلق إلى الثقافة العربية (سمير قصير: «تأملات في شقاء العرب»)، فإن النكسة قد أورثت الإحباط من إمكانية استعادة التوازن العسكري بين الجيش الإسرائيلي والجيوش العربية، كما أن النكثة بوعود السلام التي أعلنها رعاة السلام الكبار قد أورثت أجيال الهزيمة الجديدة الارتكاس إلى الحلول الدموية بالعمليات الانتحارية التي يسميها المنتصر إرهاباً ويسميها المهزوم جهاداً، وهو درس اختياري في مصطلحات السياسة العربية المعاصر... لمن يريد أن يتعلم «الجهل»!

بعد النكبة والنكسة والنكثة، بدأت تظهر الآن في العلن مظاهر المرحلة الرابعة واسمها «النكتة»!

إذ بدأت حكومات ومجتمعات غربية تعلن أمام الملأ سأمها من دعم إسرائيل اللامتناهي ومن معاملتها الفاخرة والحنونة من بين دول العالم.

إذ أظهر استطلاع أجراه معهد «فورزا» الألماني لمناسبة مرور 60 عاماً على إنشاء إسرائيل أن ثلثي الألمان أصبحوا يريدون النظر إلى إسرائيل نظرة عادية وعدم منحها دوراً خاصاً في السياسة الخارجية الألمانية. وكان 25 أستاذاً جامعياً ألمانياً قد أصدروا بياناً رسمياً جاء فيه أن ألمانيا قد دفعت دينها للمحرقة (الهولوكوست) كاملاً، وأن ألمانيا يجب أن تتوقف عن إعطاء إسرائيل معاملة خاصة وأن تتخلص من التعويضات الملزمة ومن الشعور بالذنب. وفي صحيفة «ذي اندبندنت» البريطانية نشرت مؤخراً مقالة بارزة ولافتة تحت عنوان: هل يتعين علينا النظر إلى إسرائيل على أنها دولة تربطنا بها صداقة خاصة؟!

إذا تعددت وتضافرت هذه المشاعر الإنسحابية وأصبح حاملوها من ذوي النفوذ في الغرب فستحل علينا «النكتة»، وهي أن إسرائيل لن تسقط بالجيوش العربية ولا بالمفاوضات التنازلية، بل ستسقط إسرائيل بسبب تخلي الغرب أخيراً عنها وتركها وحيدة في العراء العربي، ولن ينفعها هيكل سليمان المزعوم منذ القدم ولا هدهد سليمان المنتخب منذ أسبوع ولا خاتم سليمان الذي ابتلعه أولمرت!

من النكبة إلى النكسة إلى النكثة إلى النكتة، ينشأ ناشئ الفتيان فينا على قاموس السياسة العربية.


كم؟

«الأرقام».. الحروف الأبجدية للعصر الرأسمالي!

(1)

الحياة: حروف وأرقام.

الحروف هي قاموس الروح والعاطفة والفكر، والأرقام هي قاموس الاحتياج والاستهلاك.

لا يستطيع البشر العيش بالحروف وحدها ولا بالأرقام وحدها، لأن أحدها يعزز الآخر، وفق الحجم الفطري لكل منها.. بأفضلية الحروف.

وكلما ازداد استعمال الأرقام أكثر من الحروف في أي عصر، كان هذا مؤذناً بخلل في معادلة العيش البشري.

(2)

كنا قبل سنوات ليست بالكثيرة نتساءل: ما الذي يجري في العالم؟ كل شيء أصبح مادياً في هذا الكون!

قبل تلك السنين كان البشر يعرفون ويزاولون أشياء كثيرة، متعددة ومتنوعة، فيها: التجارة والزراعة والصناعة والترفيه والروحانيات. لكن الكون تغير وأصبح كل ما فيه مادياً، بل ونقدياً تحديداً. أصبح الانخراط في التجارة والزراعة والصناعة لا يعني الخوض في التربة مع البذور.. والفرح بالمحصول، أو الوقوف في المصنع بين العمال وهدير الآلات وولادة المنتج، أو تصدير واستيراد البضائع من مؤن وملابس. بل هو، بكل بساطة ودناءة، الوقوف أمام شاشة كمبيوتر ونقل «تربة» شركة زراعية من مُزارع وهمي لم تمس يده بذوراً قط إلى مُزارع وهمي آخر يجلس في بنك آخر في مدينة أخرى، وبجواره في صالة التداول كأس ماء يسقي به ريقه الذي جفّ من كثرة الاستزراع.. من دون محصول!

ما الذي جرى في الكون؟!

لقد هيمنت الرأسمالية وبلغت ذروتها وحدّها الأقصى، الذي جعل «الأرقام» هي الحروف الأبجدية للعصر الرأسمالي.

في ما قبل طغيان الرأسمالية كان كل شيء له «قيمة»، أصبح في ما بعدها كل شيء له «ثمن»!

التجارة والزراعة والصناعة أصبحت كلها استثماراً افتراضياً عبر التعامل بالأسهم. الترفيه نفسه لم يعد ترفيهاً كما كان بل أصبح تجارة واستثماراً، بحيث لم يعد من العيب أن يسجل لاعب كرة قدم اسمه سيباستيان الفونسو مثلاً هدفاً لمنتخب «وطني» عربي! بل حتى الوعاظ لم ينجوا من فحيح الرأسمالية، فأصبح لكل واعظ ثمن.. بعد

أن كانت قديماً للواعظ قيمة!

الرأسمالية كوسيلة عيش ليست جديدة على الكون، لكن الجديد هو انفلات الرأسمالية إلى درجة التحكّم في العالم والناس بشعار: رأسمالية بلا حدود.

معظم الغاضبين مما يجري في العالم الآن، يعلنون بوضوح أنهم ليسوا ضد الرأسمالية كطريقة تداول، لكنهم ضد الرأسمالية كمنهج حياة (انفلات الرأسمالية).

لست اشتراكياً، لكني أكره الرأسمالية التي تخيفني من أن أعلن أني اشتراكي!

(3)

من المناسب الآن لمن يريد أن يحلّل ما يجري في الكون أن يقرأ أو يطّلع على ثلاثة كتب أساسية في هذا الشأن: «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» لماكس فيبر، و«رأس المال» لكارل ماركس، و«أفول الغرب» لأوزوالد شبنغلر. تضمنت تلك الكتب الثلاثة نبوءات من كتّاب ومفكرين غربيين لما يجري في الغرب والعالم الآن.

هل كان شبنغلر يعي ما يقول عندما حذّر في كتابه الضخم ذاك، من العوار الذي سينجم عن انفلات الرأسمالية؟

مرّ العالم، أو الغرب تحديداً، بأزمة اقتصادية عام 1929، يرى

محللون أنها ربما كانت الشرارة الأولى لاشتعال الحرب العالمية الثانية بعد أقل من عشر سنوات.

هل ستكون أزمة 2008 هي شرارة الحرب العالمية الثالثة؟ إن لم تكن «الثالثة» قد انقضت، وأن الحرب القادمة هي الرابعة أو الخامسة!

ما الذي يجري في الكون؟

كيف أمكن للرأسمالية أن ترسمل كينونة البشر، بعد أن كانت ترسمل تجارتهم فحسب في ما مضى؟

كيف تسنى لنا أن نسكت ونحن نرى انفلات الرأسمالية في الكون يزيد من غنى الأغنياء وفقر الفقراء؟!

هل تغاضينا عن طغيان الرأسمالية لأننا كنا من بين الملايين الموعودين بالثراء الفاحش، حتى لو كان ذلك من خلال تعاملات الفحشاء!

هل نسينا أنه لا يمكن لسكان الكون كلهم أو لسكان دولة أو لسكان مدينة أو حتى قرية أن يصبحوا كلهم معاً أغنياء؟ وأنه كلما ازداد ارتفاع الأسهم.. ازداد سقوط الناس في الرمال المتحركة للرأسمالية.

(4)

إذا كان ما سبق من انهيار وانكسار هو بعض ما فعله بنا انفلات الرأسمالية.. فلماذا الغضب، ولماذا الندم، ولماذا الإحباط؟!

بل.. فلنحتفل جميعاً بأن الكون يوشك أن يعود كما كان بشرياً..

يستخدم الحروف أكثر مما يستخدم الأرقام، ويسقي زرعه بيده لا بـ «الماوس» في قاعات التداول، ويكمل تصنيع منتوجاته بأيدي عماله في المصنع لا بعمال البنك، ويفرح بتسجيل هدف لمنتخب بلاده بقدم ابن حارته، ويضع أبناءه في مدارس يشغلها ما تُكسب هؤلاء الأبناء لا ما تكسب منهم فقط.

لا نريد لمؤسسات المجتمع أن تصبح خيرية أو تطوعية، لكننا لا نريدها أن تكون رأسمالية.. بلا حدود!

سوف يعود الكون إلى عهد يجلس فيه الناس مع بعضهم، يتحدثون بلغة حروفها أكثر من أرقامها. سوف يتذكرون حينها أنهم كانوا يعيشون ليتكسبوا، ولا يتكسبون ليعيشوا!

وسوف يدركون حينها أن هناك ما يمكن أن تفرح وتفخر به في «رأسك»، أكثر مما هو في «رأسمالك»!.

الفرنساركوزيّة

كل شعوب العالم تأكل الطعام بشهية، إلاّ الشعب الفرنسي فهو يأكل الطعام بشهوة!

في الموروث العربي تكمن ذروة المتعة في ثالوث: الماء والخضرة والوجه الحسن. في الموروث الفرنسي تكمن المتعة في ثالوث: الجبن والنبيذ والخبز الفرنسي. وبالطبع لا يقل الفرنسي عن العربي شغفاً بالوجه الحسن!

فرنسا البلد الوحيد الذي استطاع أن يحظى بامتيازات الاشتراكية والرأسمالية في آن، فهو «يعمل» وفق النظام الاشتراكي، و«يلهو» وفق النظام الرأسمالي.

ولذا يمكن وصف فرنسا بأنها أصدق دولة في عدم الانحياز، إذ هي بلد رأسماكي!

فالشعب الفرنسي - أو معظمه - تخلّى عن كل ما يتعلق بالدين أو بالتديّن، إلا في شعيرة دينية واحدة بقي ملتزماً بها أمام ربه، متبتلاً متعبداً بها من دون تكاسل، تلك الشعيرة هي «الإجازات الدينية»!

ففرنسا تعطل عن العمل يوم 8 أبريل، عيد قيامة المسيح، ويوم 17 مايو، عيد صعود المسيح، ويوم 15 أغسطس، عيد رفع العذراء للسماء، ويوم 1 نوفمبر، عيد كل القديسين، ويوم 25 ديسمبر، عيد ميلاد المسيح. هم يؤمنون بميلاد وصعود وقيامة المسيح، لكن ليس بالضرورة أنهم يؤمنون بالمسيح نفسه!

لا يمكن تحديد مصدر عدوى البيروقراطية العربية إلا بعد التعامل مع إدارة فرنسية، حيث الشغف بالأوراق والنماذج وصور النماذج والأختام والمواعيد الممتدة لإنجاز عمل صغير.

لماذا هذا التهكم كله على فرنسا والفرنسيين؟!.. سائر الشعوب أيضاً لديها قائمتها المميزة لها من الطبائع السيئة!

لأن فرنسا بلد الآداب والفنون والرومانسية والجمال، وهذه الصفات لا يمكن أن تجتمع في مكان واحد مع الإنجاز والحسم والواقعية والصرامة... الموجودة في بلد مثل ألمانيا بالمقابل!

السؤال الآن: هل سيغير الرئيس الجديد ساركوزي فرنسا؟ هل سينقلها من شبه الاشتراكية إلى عزم الرأسمالية؟ هل سيحولها من بلد الفنون والرشاقة إلى بلد المال والسمنة؟ هل سيرسمل أطفالها ويحيّد شيوخها؟ فرنسا تعاني اقتصادياً كما تعاني كثير من دول أوروبا من فلتان اليورو. بالمقابل فإن الحد الأدنى للأجور لم يعد كافياً لمواجهة الغلاء الذي يجعل معظم الفرنسيين غير قادرين على إكمال الشهر بالراتب حتى نهايته! هل يصبح هذا الضعف والاحتياج المعيشي هو المنفذ الذي يدخل منه ساركوزي نحو تغيير الشعب الفرنسي ورسملة فرنسا؟

يتكئ ساركوزي في أحلامه تلك على مرجعية حلمية كبرى هي «الحلم الأميركي». ففي زيارته الأخيرة إلى واشنطن، أعلن في خطابه أمام الكونغرس أنه يريد دخول قلب أميركا! وأضاف عبارة، وصفها المحللون الفرنسيون بأنها انقلاب في العلاقة التاريخية المتزنة مع أميركا منذ ديغول كما لا يمكن تصور سماعها من جاك شيراك: «يمكن للولايات المتحدة الاعتماد على فرنسا».

إشكالية العلاقة الحديثة بين أوروبا وأميركا يوجزها جان بريكمون، الأستاذ في جامعة لوفان ببلجيكا، بالقول: «المشكلة الأساسية في زمننا هذا، في أوروبا، هي تأقلمنا مع تراجعنا، ليس التراجع الخيالي نسبة إلى الولايات المتحدة، بل التراجع الحقيقي نسبة إلى دول الجنوب. وتحاول الطبقة الأميركية الحاكمة الحفاظ على هيمنتها بالقوة، لكن فشلها يزيد من تفاقم أزمة الإمبراطورية، في حين لا يزال يخيّل لليمين الأوروبي أن تقليد الولايات المتحدة قد يكون الحل لمشاكلنا. ويتجاهل اليسار الراديكالي عموماً مسألة التداعي هذه، ويدافع في الواقع، في ما وراء خطابيته، عن سياسات اشتراكية كلاسيكية، جعلت العولمة من تطبيقها مسألة صعبة». («لوموند ديبلوماتيك» - أغسطس 2007).

الذين يتخوفون من هذا الانكباب الفرنسي على أميركا، لا يزعجهم الفعل فحسب، بل يزعجهم توقيته، وأبطاله الذين يؤدون الأدوار الرئيسة فيه!

هل ستقبل فرنسا، الموعودة بإضرابات متوالية تُحركها النقابات

الاشتراكية، بحلول رأسمالية يستعيرها ساركوزي من الحلم الأميركي؟ أم أن كوابيس حرب العراق التي لوّثت الحلم الأميركي ستمنع فرنسا الاشتراكية من الترسمل، وربما التأمرك؟

سنستمع إلى الرأي الفرنسي «المعتّق»، بعد انقضائه من وجبة الجبن والخبز والنبيذ!.

بَـرَكة رمضان!

في المفهوم الروحاني، أن شهر رمضان هو شهر تزداد فيه أعمال الخير والبر والعبادات والتجليات والصلوات والخلوات والعبرات والزكوات.

لكن في المفهوم الرأسمالي الجديد، فإن رمضان شهر تزداد فيه الحسنات من العبادات وتزداد السيئات من القنوات. في رمضان كل شيء يتضاعف، ارتياد المساجد وارتياد القنوات الفضائية، بكاء المصلين وكوميديا الممثلين، الجوع والتخمة، التصدق على الفقراء والتبذير مع الشياطين.

تزداد في رمضان القلوب الرهيفة التي تتصدق، ولكن أيضاً القلوب الغليظة التي تبذّر.

أكثر من ٪50 من إجمالي المواد الغذائية التي تشتريها العائلة سنوياً، يتم شراؤها في رمضان.

وأكثر من ٪60 من إجمالي المسلسلات التلفزيونية التي تعرض سنوياً، يتم عرضها في رمضان.

وأكثر من 70 ٪ من الكوميديا والضحك الذي تعرضه التلفزيونات سنوياً، يتم تقديمه في رمضان.

وأكثر من ٪80 من برامج المسابقات التلفزيونية والإذاعية سنوياً، يتم تقديمها وإغراء (إغواء) المشاركين بها في رمضان.

وأكثر من ٪90 من المسلمين لا يقترفون إثم (القمار) في الأيام الاعتيادية، لكنهم يقعون فيه عبر برامج المسابقات في رمضان!

وأكثر من ٪100 من الفهم الخاطئ لرمضان يتم في رمضان!!

لا نريد أن يتحول شهر رمضان إلى شهر حزن وجوع، لكن أيضاً ألا يتحول رمضان إلى شهر تبذير وتهريج واستنزاف واستخفاف، ومعاص وآثام لا تُرتكب إلا في رمضان.. ويا للمفارقة!

ألم يكفِ الرأسمالية أن تهيمن على أحد عشر شهراً من أعمارنا، فإذا بها تلتهمَ رمضان كما لم تفعل مع الشهور الأخرى؟

إذا تحول رمضان إلى شهر «رأسمالي» كما هو الآن، من أين ستأتي مفاهيم «الاشتراك» مع الفقراء في معاناتهم مع الجوع، و«الاشتراك» في تجريب معيار «القلّة» ونحن نعاني من «الكثرة» في كل شيء أثناء رمضان.

تحولت بَرَكة رمضان إلى «بَرْكَة» طافحة من المأكولات والمشروبات والضحكات والمقامرات.

من يعيد لنا بَرَكة رمضان؟.

عودةُ «ماركس»

(هذه المقالة ليست بمناسبة الأزمة المالية العالمية الراهنة، بل بمناسبة بدء تعافي الأسواق المالية منها)

(1)

في كل مرة تأتي أزمة مالية عالمية، يترنح الرأسماليون.. وينتعش الماركسيون شغفًا بقرب تحقق نبوءة ماركس بسقوط الرأسمالية «الوشيك»!

ثم إذا تعافى السوق، كما هو وضعه هذه الأيام، اندحر الماركسيون وعاد الرأسماليون من جديد ليؤكدوا، كما يرددون دومًا، بأن ميزة الرأسمالية أنها نظام مرن يتجدد ويعالج نفسه بنفسه، فالرأسمالية نسق مفتوح قابل للتحول والتطور بما يكفل الديمومة.

(2)

يتناول الاقتصاديون التحليلات المقارنة بين الانهيار المالي

الراهن والانهيار المالي الذي غشى العالم عام 1929م. لكنهم قلّما تناولوا الانهيار العالمي الأسبق، الذي وقع عام 1857 م. والمصادفة المذهلة والمثيرة أن تلك الأزمة المالية أتت متزامنة مع تدوين كارل ماركس (1818 - 1883 م) لكتابه الشهير (رأس المال) الذي بدأ كتابته عام 1844 م وسلّم المجلد الأول منه للمطابع عام 1867 م، أما الأجزاء الأخرى من رأس المال فصدرت بعد وفاة ماركس.

كان ماركس قد انشغل عن كتابه الأم بكتابات أخرى أدبية وصحفية عن أحداث وانقلابات أوروبا، لكنه عاد مندفعًا إلى كتابه رأس المال، في وضع يصفه فرنسيس وين هكذا: (وما أعاد ماركس في النهاية إلى دراساته الاقتصادية هو مجيء الزلزال المالي الدولي في خريف العام 1857 بعد أن طال انتظاره. وقد ابتدأت الأزمة بانهيار مصرفي في نيويورك ثم انتشرت عبر النمسا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا، مثل قيامة مسرعة). وحين يصف وين ذلك الحدث بأنه مثل القيامة أتذكر ما ينتشر الآن عبر رسائل الإنترنت بأن الأزمة المالية التي نعيشها الآن هي مؤشر وقوع القيامة الوشيك.. ما أشبه الليلة بالبارحة!

ثم يكمل وين وصف تلك المرحلة: (وهرع انجلز الذي كان في فترة نقاهة من مرض، عائدًا إلى موقعه في مانشستر لكي يشهد المهزلة: انخفاض الأسعار والإفلاسات اليومية والهلع المفرط، وقد كتب في تقرير إلى ماركس: المظهر العام للبورصة هنا مفرح حقاً!).

وانكب ماركس في مكتبه حتى الرابعة صباحًا كل ليلة يدوّن أفكاره الاقتصادية «لكي تتضح لي الخطوط العامة قبل الطوفان»

يقول ماركس. لكن فرنسيس وين يسخر قائلاً: (والطوفان لم يأت قط، لكن ماركس واصل بناء سفينته) !

ومازال الطوفان منذ أزمة 1857 م ثم أزمة 1929 وحتى أزمة 2008 م، يأتي ولا يأتي.. وسفينة الماركسيين عند شواطئ البنوك تنتظر!

(3)

يصف فريدريك انجلز، عميل ماركس داخل قلعة الرأسمالية، في العام 1856 أن «السنة التالية سوف تشهد يومًا من الغضب لم يُر له مثيل من قبل، فصناعة أوروبا بأجمعها في حالة من الخراب، والأسواق برمتها متخمة بمخزونها من البضائع، والطبقات المالكة جميعًا في ورطة، إفلاس البورجوازية الكامل، حرب وتبذير إلى آخر حد». وفي خريف 1857 وقعت الأزمة المالية حقًا، لكن لم يتحقق الطوفان.. ولم تبحر سفينة ماركس.

رغم الأزمات المالية المتوالية، مازالت الرأسمالية تزداد قوة وانتشارًا والماركسية تزداد ضعفًا وضمورًا. وقد امتدح ماركس بنفسه قوة الرأسمالية وعنادها على السقوط بأنها «اجترحت عجائب تتخطى بكثير الأهرامات المصرية... وقامت بحملات تضع في الظل كل خروج سابق قامت به الأمم وكل حرب صليبية سابقة». ما هي هذه القوة الداخلية التي تمنع سقوط الرأسمالية، يجيب تروتسكي:

«بأن الرأسمالية تعتاش على الأزمة والازدهار في آنٍ معاً.. كما يعتاش الكائن البشري على الشهيق والزفير».

أي أن الرأسمالية لا تعتاش فقط على المال (الأكسجين)، بل وعلى غياب المال أيضاً.

(4)

هل ستظل الرأسمالية المتوحشة عصية على السقوط؟ ربما، لكن الرأسمالية التي ستقاوم لاحقاً الأزمة المالية الرابعة أو العاشرة،حتمًا لن تكون هي نفس الرأسمالية التي صنع ماركس عام 1857م سفينته للنجاة منها!

وحتى ذلك الحين لابد من الإقرار بأن «الماركتية هزمت الماركسية».

دولة مفروشة .. للبيع

(1)

الأزمة المالية العالمية جعلتنا نسمع كثيراً عن: شركة للبيع، وبنك وناد ويخت وجامعة... للبيع، لكن أن نسمع عن دولة للبيع فذلك هو أقصى ما كان يمكن أن نسمعه في هذا العصر الغني/ الفقير، الذي نعيشه!

دولة أيسلندا توشك أن تعلن إفلاسها، ولذا فهذا العنوان الهزلي بمرارة هو أبلغ وسيلة للتعبير عن آثار الأزمة المالية التي تعصف بالكون في كل أرجائه وزواياه، كبيرها وصغيرها، أبيضها وأسودها. فأيسلندا ليست دولة من مجاهل أفريقيا أو من جزر آسيا المتناثرة في المحيط، بل هي دولة أوروبية ناصعة البياض، وعضو في حلف الأطلسي، وجارة لبريطانيا «العظمى».

إنها برهان جديد على ما سبق أن أشرنا إليه من أن الأزمة المالية زادت عدد الفقراء ولم تزد فقر الفقراء!

قال أحد الفقراء معلقاً على وجود أزمة مالية في العالم: هناك من

لديهم «مالية» وهناك من لديهم «أزمة»، أنا لحسن الحظ ليس لديّ لا أزمة ولا مالية!

(2)

هل فشلت الرأسمالية؟!

سينبري لك الرأسماليون بالقول: لم تفشل الرأسمالية بل فشل الرأسماليون في تطبيق آليات النموذج. تماماً مثلما نفى الاشتراكيون من قبل فشل النظام الاشتراكي، بل الفشل في اختيار المعمل المناسب للتجربة الاشتراكية!

لكن، لا الرأسماليون يقبلون أعذار الاشتراكيين، ولا الاشتراكيون يتوقفون الآن عن الشماتة بالرأسماليين!

وما زال المحللون الاقتصاديون للأزمة المالية يرددون بكل رباطة جأش: الأسوأ لم يأت بعد!

ماذا يمكن أن يكون أسوأ من تسريح موظفين وتجميد أو تخفيض رواتب من بقي، وازدياد احتمالات هجمات إرهابية بسبب خفض عدد المسؤولين الأمنيين، وتباطؤ مكافحة وباء منتشر بسبب ضعف الموارد الطبية، وحتى توقّف الأندية الرياضية عن منح لاعبيها الوجبات مجاناً بعد أن كانت في زمن مضى توفر لهم أفخر أنواع الشوكولا بين الشوطين، وأيضاً موت أسد في سيرك إحدى الدول لأن الناس ما بقاش عندها «لحمة»!

ويقولون: الأسوأ لم يأت بعد!

(3)

يخيفوننا في تحليلهم للأزمة المالية بقولهم: الأسوأ لم يأت بعد.

أتدرون ما هو الأسوأ الذي سيأتي بخير؟

أن يتحول الإنسان إلى إنسان!.

سياحة «مئة ليلة وليلة»

(1)

في البدايات الأولى للانفتاح والتحضر في بلادي، كانت الوجهة السياحية الوحيدة المتاحة هي الكويت، رغم المقاطعة الدينية للعائدين منها! تذللت مسوغات المقاطعة وتمددت خطى السائحين نحو مصر ولبنان.. بثقافة المسارح والكازينوهات غير المألوفة للذهنية الطينية الغضة، وأسقطت حينها الكويت من القائمة السوداء للسياحة.. بل ربما سقطت القائمة برمتها!

وعندما أصبحت روائح النفط تكاد تجول بين الحواري وفي البيوت، إبان المزاد النفطي الشهير في حرب 73م، انبعجت طموحاتنا السياحية لتقتحم مقاهي باريس وتحتل شوارع لندن.

واستمر الوضع السياحي هكذا للإنسان السعودي أو الخليجي، يضيف في كل عام سياحي جديد وجهة جديدة من مدن الغرب أو الشرق الذي سجل أرقاماً قياسية في احتضان شهور عسل سعودية عديدة، لو كانت عسلاً حقيقياً لسالت به شوارع ماليزيا بما يكفي

لإفطار سكان العالم!

(2)

لم توفر الأزمة المالية العالمية الراهنة أي قطاع خدمي من الضرر والاكتواء بنار الانكماش والتقلص.

قطاع السياحة، أصيب بطعنات وجروح في معركة الأزمة المالية، لكنها جروح غير مميتة، لحسن الحظ. لن يتوقف الناس عن السياحة، لأن السياحة لم تعد ترفيهاً كما كان المفهوم السائد، بل هي ثقافة وجزء من نمط العيش العولمي.

لن يتوقف الناس حتماً عن مبدأ السياحة، لكنهم حتماً أيضاً لن يستمروا على نفس المنوال الذي استمرؤوه إبان سير روائح النفط فوق سماواتهم. سيعمد السياح في مسعى ترشيدي باللجوء إلى ثلاثة منافذ، على حد قول نائب أمين عام المنظمة الدولية للسياحة: «سيلجؤون أكثر إلى الشركات المتدنية الأسعار، وسيختارون وجهات ومدن أقرب، وسيميلون إلى خفض مدة إقامتهم».

بالنسبة للمنفذ الأول فسيبدأ الآباء بإقناع أبنائهم بأن فنادق الثلاث نجوم والنجمتين لا تختلف عن فنادق الخمس نجوم إلا في نعومة وليونة طرّاحة السرير، والليونة الزائدة لطراحة السرير تضر بالعمود الفقري لأبناءنا الأعزاء! أما اختيار الوجهات والمدن الأقرب فهو سيقلص حتماً من احتمالات خطف الطائرة أو تعرضها لعمل إرهابي،

حسب رؤية الأب الحكيم الحريص على حياة أسرته. ويبقى إقناع الأسرة الكريمة بأهمية خفض الإقامة السياحية هو المهمة الأعوص أمام الأب الرحيم / المرحوم!

طبقة مغايرة من السياح، لا تشغلها هذه المساعي «السطحية» لمواجهة العجز المادي في الميزانية السياحية للأسرة «الفاخرة».

لكنها ستضيّق على نفسها أيضاً، فهي مثلاً بدلاً من أن تحجز بأجنحة «ألف ليلة وليلة» في فنادق باريس وجنيف، ستكتفي بأجنحة «مئة ليلة وليلة»! وبدلاً من أن تمضي ثلاثة أشهر في رحلتها الاستجمامية، شهر في باريس وشهر في جنيف وشهر في الطريق بينهما (!)، ستقلص المسافة بين المدينتين وتكتفي بشهرين سياحة!

والذين يظنون، ظن السوء، بأن الطبقة المخملية لم ولن تتأثر بالأزمة المالية الراهنة، ولن يؤثر الوضع المادي الجديد في برنامجهم السياحي، يجب أن يقرؤوا هذه البيانات التي أعلنتها إدارة الجمارك السويسرية من انعكاس ظلال الأزمة المالية على المنتجعات السياحية في سويسرا، بل حتى على استهلاك الكماليات الغذائية للأثرياء مثل الكافيار وكبد الأوز، حيث «انخفض استيراد كبد الأوز في شهر نوفمبر 2008 بنسبة 58٪ مقارنة مع نفس الشهر من عام 2007، حيث يصل سعر الكيلو الواحد إلى حوالي 900 دولار. بينما انخفض استيراد الكافيار بنسبة 45٪ سعر الكيلو يناهز 2000 دولار».

هذه الأرقام الآنفة تبين لكم حجم «التقشف» الذي أصبح يعيشه إخواننا الأثرياء بعد الأزمة المالية «الخانقة» لهم!

اشتر قبرين.. واحصل على الثالث مجاناً!

(1)

هناك بعض القضايا أو الموضوعات عندما تريد الكتابة عنها فإنك تجد نفسك ملزماً بأن تقدم بين يدي مقالتك حشوة ديباجية تكنزها بالمسوغات والمبررات والمهيجات والمحفزات التي دعتك إلى الكتابة عن ذلك الموضوع.

أما الكتابة عن «القبور» فأحسب أنها لا تحتاج إلى مقدمات.. تماماً كما أن الدخول إلى «القبور» لا يحتاج إلى مقدمات!

(2)

تعوَّد الإنسان أن يتلقى في وطنه كثيراً من الخدمات الأساسية في المراحل الأولى من عمره «مجاناً»! فهو «يرُاقَب» في بطن أمه مجاناً.. ثم يولد مجاناً.. ثم «....» مجاناً.. ثم يطعّم (بتشديد العين) مجاناً.. ثم يُبتعث مجاناً.. ثم يمنح أرضاً سكنية مجاناً.. ثم يُعطى قرض إعمار

مجاناً (أي دون فوائد) ثم.. ثم..، وتتخلل هذه الخدمات المؤقتة خدمة مستديمة، وهي العلاج مجاناً.. لمن استطاع إليه سبيلاً!

(3)

هذه المجانيات المتوالية التي تقدم لك لأنك ابن الوطن، تتوقف عنك عند سور المقبرة.. عندما تتحول من ابن هذا الوطن، إلى ابن وطن آخر!

تلك الهبات الباهظة والعطايا الوافرة تتوقف عند حوافّ قبرك، ليصبح هذا المنزل الذي ستسكنه حياتك الأخرى وهو لا يتعدى أمتاراً ضئيلة أكثر كلفة وعبئاً من ذلك المنزل ذي المساحة الوافرة الذي بني لك في وطنك منحة وقرضاً.

(4)

تدخل المقبرة فتجد «تسعيرة» القبور معلقة هكذا:

أسعار القبور/

قبر كبير 100 ريال.

قبر وسط 80 ريالاً.

قبر صغير 60 ريالاً.

يا إلهي.. ما أبشع هذه اللوحة، تلك هي التسعيرة الوحيدة التي لن تبحث فيها عن تخفيضات!

«تخفيضات»!.. نطقت هذه المفردة الاستهلاكية الموحشة فقفزت إلى ذهني رائحة الرأسمالية.. الترويج.. الاستهلاك، تخيلتُ لو أن الحياة الدنيا ازدادت بشاعة، وطُرحت فكرة «خصخصة المقابر» أو تم تأسيس «شركة للخدمات القبورية» وطُرحت أسهمها للتداول!

أو أن شركات القبور بدأت تتنافس في تقديم العروض الخاصة حتى تقنعك بأن تشتري قبرك منها، عروض مثل:

- اشتر قبرين واحصل على الثالث مجاناً
- اشتر القبر ونحن نضمن لك البكّائين
- مع كل قبر هدية كفن مجاناً.
- اشتر قبرك.. وشارك في السحب على سيارة!
- الآن.. قبور طويلة الأجل وقليلة «التراب»!
- فرصة ذهبية.. قبر كبير وفي موقع ممتاز بأقل الأسعار.

وأخيراً: شركة «صوفية» تعلن عن: قبر «للتقبيل»!

(5)

هذه الخيالات المادية للقبور، استدعتها تلك اللوحة الاستفزازية المعلقة في مدخل إحدى مقابر مدينة الرياض!

تُرى هل مسوّغ اللوحة متعلق بأمور شرعية لا نعلمها.. ونرجو أن نعلمها.

أم أنها متعلقة بأمور مدنية «بلدية» تطلب هذا المبلغ الزهيد، من

ذوي المتوفى بعد أن أنفقت عليه الدولة مبالغ طائلة في حياته دون مقابل.

أم أنها دعوة إلى الترشيد، حيث تبين أن التعليم المجاني والعلاج المجاني يفضي إلى هدر بسبب سوء الاستعمال.

وأن القبور لو جُعلت مجاناً لكان هذا داعياً إلى الهدر بسبب سوء الاستعمال من لدن بعض من يستغل مجانية القبور فيطلب دفنه في القبر دون حاجة ماسة إلى ذلك؟!.. ربما!.


أين؟

عالم «صُنع في الصين»

إنهم يعبثون بالأرقام!

خرجت من الفندق حتى أجرب نسيم هذه المدينة الصينية الصغيرة (شينخدو)، كحالتي مع كل مدينة جديدة عليّ. لكن معاييري كانت معممة ولم أراع خصوصية الصين، فقد وجدت النسيم هنا بالكاد يكفي الملايين التي تسير في الشارع.

رأيت قرابة 1000 صيني يقفون على رصيف إحدى الإشارات المرورية، سألت المرافق الصيني: هل هذه تظاهرة؟! قال: لا.. هؤلاء مجرد مشاة سيعبرون الشارع إلى الرصيف الآخر!!

في الأيام التالية لم نعد نستغرب التجمعات والحشود، إذ يمكنك أن ترى ما يشبه (مسيرة المليون) التي ضاقت بها لندن وبيروت سياسياً، هنا ترى مسيرة المليون عند مدخل مدينة ملاهي!

في هذا البلد تستخدم مفردات: تجمعات.. حشود.. جماهير.. وما شابهها من دون أي حرج في دقة الوصف العددي، ففي يناير 2005 بلغ سكان الصين 1.3 مليار نسمة. الآن بعد أكثر من أربع سنوات

من ذلك الإحصاء سيكون العدد على وشك الوصول إلى مليار ونصف نسمة يشكلون قرابة ربع سكان العالم (25٪). أي بين كل أربعة أشخاص تلتقيهم في هذا الكون يمكن أن يكون أحدهم صينياً! ولولا (قانون الولد الواحد لكل أسرة) الذي طبق قبل ثلاثين عاماً في الصين، لربما كانت الإحصائية الآن أن بين كل أربعة أشخاص تلتقيهم في هذا الكون يمكن أن يكون خمسة منهم من الصين!!

في العام 1978م طُبِّق قانون تحديد النسل في الصين، بحيث تمنح كل أسرة صينية فرصة واحدة لإنجاب مولود. ولا يوجد استثناءات إلا في المناطق الريفية الزراعية إذا رزقت العائلة بمولودة أنثى فيسمح لها بفرصة إنجاب أخرى لعلها تكون ولداً يحمل عبء الزراعة مع أسرته، أما إذا كان المولود الثاني أنثى فتكون العائلة استنفذت فرصها الإنجابية.. ولا عزاء للبنات.

من الانعكاسات السوسيولوجية الطريفة لهذا القانون الصارم بمولود واحد لكل أسرة، تغير القاموس الصيني حيث اختفت منه كلمات لم تعد مستخدمة مع الجيل الجديد، وهي كلمات: أخ، أخت، عم، عمة، خال، خالة، ابن أخ، ابن أخت، ابن عم، ابن خال، وما على شاكلتها من المفردات التي نسيتها الأسرة الصينية لعدم وجود استخدام لها أو حاجة إليها! لا يحتاج الصينيون إلى استخدام المثل البراغماتي الشهير (أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب)، الصيني ليس أمامه سوى مواجهة الغريب فورا. وهو ما عمدت إليه الصناعة الصينية في غزو الأسواق العالمية مباشرة

وبقوة ضاربة وكاسحة لا تعترف بالأخ أو ابن العم!

في حوار جانبي، قال لي أحد المسؤولين الصينين، لو توجه المستهلك الصيني لشراء كافة احتياجاته من المنتجات الصينية فعندها لن نحتاج إلى تصدير الصناعات الصينية إلى دول العالم، فالمستهلك الصيني سيسحب كل الإنتاج.

ثم انغمس في الاقتصاد المؤدلج قائلاً: تخيل لو أن المستهلك الصيني قاطع أو امتنع عن تناول الكوكاكولا فإن أمريكا ستخسر قرابة نصف مليار دولار يومياً!

الصينيون اشتهروا بكثرة العدد ولكن بقلة الحجم، فقصر القامة عند الصينيين هو الذي ربما حببهم في فولكلور تراثي موسيقي يعتمد على المشي بساقين خشبيتين طويلتين يتراقص بهما كأنهما من لحمه ودمه. رغم أن الجيل الجديد من الصينين قد تحسَّن نسله ولم يعد مهيمناً عليه قصر القامة كما أجداده، وهذا سر بيولوجي صيني لا بد من البحث في أسبابه؟!

* * *

عدت من الشارع الصيني إلى الفندق، بعد أن رأيت الحشود المذهلة ونظافة الشوارع المذهلة والانضباط المذهل.

الجرعة الزائدة من الذهول ليس لها علاج سوى النوم!

«بـربـسـة» بـاريس!

(1)

في اللحظات الأخيرة تم تغيير عنوان هذه المقالة، فبعد أن كان العنوان هو «تعريب باريس» أو «عربية» باريس، تحول العنوان إلى «بربسة»!

قد يبدو للقارئ لأول وهلة حدوث تحول عكسي في مغزى العنوان من حيث إن «العربية» تلمح إلى اصطباغ باريس بالملامح العربية، بينما «البربسة» تؤكد تمسك باريس بباريسيتها النقية، أما الذين يفهمون المعنى العامي لكلمة «بربسة» الخليجية فسيدركون أنها رديف للعربية.. وبالتالي فلا تحوّل في مضمون العنوان المبتغى!

(2)

تقاطر على باريس، خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عدد من الرحالة والأدباء العرب، الذين أرّخوا لزياراتهم تلك في كتب

ما زالت متداولة للمهتمين، وإن كان قد طغى عليها شهرة وانتشاراً كتاب الطهطاوي (تحفة الإبريز في تلخيص باريز).

تناقل أولئك الزوار / الكتّاب النكهة الخاصة بمدينة باريس، التي منذ ذلك الحين كانت رمزاً للثقافة والفنون والغرور الارستقراطي. كتب أولئك عن باريس وكأنهم يكتبون عن إحدى حارات القمر التي طالما حلم العشاق باستئجار غرفة فيها مطلة على الفضاء.

عندما يتعذر على العاشق، آنذاك، السكنى في القمر، فإنه يخفف من طموحه شيئاً قليلاً ويبدأ بحلم السكنى في باريس.

(3)

لكن باريس الآن ليست هي باريس الطهطاوي ورفاقه. باريس الآن لم تعد أكثر شبهاً بإحدى حارات القمر من شبهها بإحدى حارات العرب.

الحلم العربي بسكنى باريس يوشك أن يكتمل!

«مقاهي» باريس توشك أن تتحول الآن إلى «قهاوي» عربية تفوح منها رائحة المعسل الفاخر والبخشيش الفاخر والمقاعد المحجوزة بدون قاعدين، والأحاديث المفخخة بالامتيازات الخرافية.. وبقية لوازم القعدة في الشانزليزيه!

باريس التي كانت مدينة الأناقة والموضة، تناقش الآن في برلمانها ظاهرة انتشار النقاب والبرقع في شوارعها، والموقف القانوني من

إمكانية منعه في أماكن العمل، وحتى في الأماكن العامة والطرقات، هذا إذا استطاع البرلمان الفرنسي إنجاز لوائح القانون قبل أن تتبرقع مليون امرأة مسلمة في فرنسا من أصل خمسة ملايين مسلم فيها كأكثر تعداد إسلامي في دولة أوروبية، عندها قد تفوز امرأة مبرقعة بعضوية البرلمان الفرنسي! وإذا كان حقاً ما يقال أن مطعم «مثلوثة» سيفتح قريباً في الشانزلزيه، فإن رئيسة البرلمان الفرنسي ستكون قريباً أيضاً «مبرقعة»!

باريس المهووسة بكرة القدم، لم يحتفل أهلها في الشوارع والأحياء بانتصارات المنتخب الفرنسي في تصفيات كأس العالم مثلما احتفل الجزائريون فيها بتأهل المنتخب الجزائري. طوال الثلاث سنوات الماضية من إقامتي في باريس، لم أسهر أو أمتنع عن النوم بفعل الجماهير الفرنسية، لكن الجمهور الجزائري فعلها مرتين، حتى الآن، وقلب باريس عاليها سافلها حتى ساعات الفجر في ليلة يوم عمل وليس إجازة. الأولى عندما تأهل إلى كأس العالم عبر الحرب «العربية» الأولى مع مصر، والثانية قبل البارحة حين تأهل إلى نصف نهائي كأس أفريقيا، وسيقابل مصر غداً في الحرب «العربية» الثانية. وهو ما يفرض عليّ أن أبحث من الآن عن وسيلة للغياب أو الغيبوبة حتى لا أستعيد الكابوس المخيف للكلام السكاكيني الذي سمعناه في البرنامج المصري الشهير «البيت بيتك». (لافت أن يكون اسمه البيت بيتك ويتبنى طرد بعض العرب من البيت المصري الكبير!).

كما لا أريد أن أستعيد أفراح «الفتح» الجزائري بالتأهل، وما وصفه

أحد الإعلاميين الجزائريين بأنها فرحة أكثر من فرحة استقلال الجزائر عن فرنسا! (لافت أيضاً أن الجزائريين يتحدثون بالعربية عن مآسيهم وقضاياهم ومشكلاتهم، لكنهم عند أفراحهم واحتفالاتهم يتحدثون بالفرنسية.. ولا عزاء للعربية!).

(4)

هكذا «تبربست» باريس، وأوشكت أن تفقد نكهتها التي كان العرب، نخبة العرب، يذهبون إليها ليذوقوا فيها طعماً أو طُعماً باريسياً خالصاً.. كالذي وجده رفاعة الطهطاوي وزملاؤه. وقد يصدق عندها ما أقلق إحدى المؤرخات الأوروبيات من أن أوروبا باتت تتخلى أكثر فأكثر عن مبادئ وتقاليد عصر التنوير، وأنه مع هذا التزايد الديمغرافي للمهاجرين والمسلمين الأوروبيين فإن أوربا باتت تنكفئ عن شخصيتها وسماتها لكي تتحول من أوروبا إلى (أورابيا EUROABIA)!

يبدو أني وصلت باريس متأخراً، بل أخشى أن أكون أحد عناصر بربسة باريس.. من حيث لا أدري!.

مطاردة مع .. كلود ليفي شتراوس

(1)

تعرفت على عميد الأنثروبولوجيا، العالم الفذ، ليفي شتراوس ثلاث مرات، في الرياض ثم موسكو ثم باريس.

كان اسمه قد مر على سمعي، مرور الكرام، أثناء دراستي في كلية العلوم، عندما كان أستاذ الفسيولوجيا يشرح العلاقة بين المكونات الداخلية لجسم الإنسان مع المكونات الخارجية المحيطة به. لم يكن ذلك الشرح كافياً وجاذباً لبناء علاقة وطيدة.

لكن اسم شتراوس عاد بقوة مع عاصفة الحداثة التي هبت بقوة في الثمانينيات على الرياض والمدن المجاورة، مسقطة بعض الأشجار وأعمدة النور، بينما كان يُنتظر أن تسقط أعمدة الظلام!

ارتبط اسم شتراوس «البنيوي» بالحداثة، وصار اسم شتراوس مرادفاً للقطيعة مع التراث ونسف الماضي، الذي كانت، أو بدت تلك الحداثة «القروية» رمزاً له.

هل كان يتخيل الإنثربولوجي شتراوس «عاشق الماضي» أنه

يمكن أن يُستخدم يوماً كرمز للقطيعة مع التراث والماضي؟! هكذا تصنع رعونة التغيير والتحديث.

(2)

في موسكو، تعرفت على ليفي شتراوس آخر، غير الذي لوثته الحداثة «المتعجلة». تعرفت على شتراوس الحقيقي مع أستاذتي بروفسورة السوسيولوجيا تاتيانا فيودروفنا. قرأت معها شتراوس الإنثروبولوجيا والميثولوجيا والعرق والتاريخ والمدارات الحزينة. تعرفت على شتراوس الذي كرس نفسه للحفاظ على التنوع الثقافي والتراثي.. لا لنسف التراث، كما أُوهمنا!

شتراوس الذي وصف ما يسميه الغرب اكتشاف العالم الجديد بقوله: «تراني أُفضّل أن أستخدم غزو العالم الجديد، على تعبير اكتشاف العالم الجديد». وبالمثل وصف إنشاء دولة إسرائيل، رغم يهوديته، بأنها «رأس جسر للغرب في الشرق، هي الحملة الصليبية التاسعة إذا شئتم».

وهو أول من عبّر عن المخاوف من قطار العولمة القادم، حين كتب في عام 1955م: «لم يعد بإمكاننا فعل أي شيء فالحضارة لم تعد تلك الزهرة الحساسة التي نحاول الحفاظ عليها، والإنسانية اتجهت نحو الثقافة الواحدة من أجل ما يسمى ثقافة الجماهير».

وكان كتابه «النيء والمطبوخ» 1969، الثمرة الأولى من إنجازه

الرباعي الضخم «أسطوريات»، حيث وظف ترميز النيء إلى الطبيعة والمطبوخ بالثقافة. ثم استمر شتراوس من وحي غابات الأمازون وشعوبها الأصلية ينسج مكوناته العلمية حول الثقافات الأصلية وعادات الشعوب وأساطيرها، ودلالات ذلك في العلاقة مع الذات والآخر.

زاد شغفي وتعلقي بليفي شتراوس، وأصبحت أتوق إلى لقائه والتحاور معه حول بعض القضايا التي تناولتها في أطروحتي.. لكن أين أجده، إن كان حياً!

(3)

انتقلت إلى باريس للعمل عام 2006م، وأنا لا أدري إن كان ليفي شتراوس ما زال حياً. في اليونسكو وجدت صدى آخر لشتراوس، حيث تمتنّ له المنظمة بأنه قد أسهم في صياغة الإعلان الأول لليونسكو بشأن العنصر (1950)، وكتب نصي «العنصر والتاريخ» (1952) و«العنصر والثقافة» (1971) بناء على طلب اليونسكو، فشعرت بأنني قد اقتربت إليه أكثر.

وسألت أكثر من واحد عنه فلم أجد عندهم أفضل من الظن الذي يتملكني بأن شتراوس المولود عام 1908م لا بد أنه في عداد الأموات الآن. حتى جاءني الجواب المفاجئ!

كان لدي في ذلك الصباح من أواخر عام 2006م اجتماع في

مكتبي باليونسكو مع مجموعة من الزملاء من قطاع الثقافة بالمنظمة، كان من بينهم رجل أشيب، يكاد لا يتكلم وإذا تكلم يكاد لا يُسمع. قدم لي كرته الشخصي، كالمتبع، فإذا اسمه ينتهي بــ ليفي شتراوس. قلت له بتردد: هل لك علاقة أو تعرف العالم الفرنسي الشهير كلود ليفي شتراوس؟ فأجابني بمنتهى البرود: نعم.. إنه أبي.

شعرت بأنني اقتربت كثيراً من تحقيق الأمنية، ولكن بقي بيني وبينها عائق «بسيط» هو الموت! لكن كيف أسأل الابن عن موت أبيه أو عدمه؟

تذكرت أن الغربيين لديهم رباطة جأش مغايرة لما لدينا نحن الشرقيين في مسأله الموت، فلا حرج في سؤاله، وفعلت. كانت المفاجأة حين أجابني الابن أن المعلم «كلود ليفي شتراوس» مازال حياً.

أخبرت شتراوس الصغير عن لهفتي ورغبتي الملحة في مقابلة شتراوس العظيم، فأخبرني ببروده أيضًا أن والده تلك الأيام ليس على ما يرام، لكنه سيحاول ترتيب موعد خلال الشهر القادم. انقضى الشهر القادم والأقدم، ثم التقيت بالابن مرة أخرى وجددت طلب «الفيزا» منه لزيارة والده فوعدني خيراً.. وما علمت أنه وعدني غيراً!

مرت الأيام مسرعة ومزدحمة بالانشغالات والالتزامات، وأنا ما زلت بانتظار الوعد.. حتى جاء أمس الأول «نعي» كلود ليفي شتراوس، قبل أن ألتقيه.

حينها أدركت المعنى الحقيقي لدلالة: أن تقترب من الهدف أكثر.. كي تخطئه!.

اللغة.. حين تنقرض

سنتعامل مع «اللّغة» بوصفها كائناً حياً..

فاللغة تنمو، وتتمدد وتتقلص، وتقوى وتضعف، وتتجمل أحياناً وتقبح أحياناً أخرى، وتتوالد فتنجب لغات أخرى متفرعة عنها تكون كالإخوان من الأب، أو تنجب لهجات تكون أكثر تماثلاً بينها كالإخوان الأشقاء.

واللغة يمكن أن يصيبها في مرحلة من عمرها العقم (أو سن اليأس!) فتصبح عاجزة حتى عن ولادة كلمة واحدة جديدة.

وأخيراً فاللغة قد تموت.. عندما يصيبها الهزال والضعف، إما بسبب عدم تغذيتها أو بسبب تركها مقعدة وخاملة في مكان مغلق، لا تخرج إلى الهواء الطلق وتخالط الناس وتتفاعل مع جوانب الحياة، فتموت مهملة كما تموت العجائز في دور المسنّين!

إذا اتفقنا على هذا التصور بالكينونة الحيوية للغة، فيمكننا القول إن اللغات تنقرض أيضاً مثلما تنقرض الحيوانات. لماذا تنقرض الحيوانات؟ إما لعجز وضعف فيها عن مواصلة الحياة

بكفاءة، أو لعكس ذلك تماماً وهو تعاظم

سيطرتها ونفوذها على الأرض بما يهدد استمرار أو نشوء كائنات أخرى أصغر وأضعف (مثال: الديناصور). هل تنقرض اللغات أيضاً لنفس العلّة، أو العلّتين بالأصح؟!

العلّة الأولى مؤكدة، فاللغة عندما تعجز أو تضعف، لعجز أهلها أو فنائهم، فإنها تفنى بالمثل. أما العلّة الأخرى فهي مدار تأمّل ونظر! دعونا نتساءل: هل ما زالت البشرية تلد لغات جديدة؟ وهل يمكن ولادة لغات جديدة من دون السماح بانقراض لغات قديمة؟!

لو لم تنقرض اللغات السامية الكبرى كالكنعانية والآرامية، فهل كانت ستبقى وتعيش اللغات العربية والعبرية (التي كادت تكون من اللغات المنقرضة لولا إحياؤها في أواخر القرن التاسع عشر ثم ازدهارها مع قيام دولة إسرائيل). ولو لم تنقرض اللغة اللاتينية التي كانت مهيمنة على كثير من أراضي أوروبا، فهل كانت ستولد وتترعرع اللغات الفرنسية والإسبانية والإيطالية المتداولة الآن؟

هل تعاظمت وهيمنت اللاتينية مثلما هيمن الديناصور، ثم انقرضت مثلما انقرض الديناصور؟

وهل ستصبح اللغة الإنكليزية من خلال هيمنتها على العالم الآن هي الديناصور القادم.. بتعاظمه ثم انقراضه؟!لكن اللغة العربية كانت قد «تدنصرت» في قرون مضت على رقعة واسعة وممتدة من العالم، حتى ما قبل سقوط الأندلس، فلماذا لم تنقرض العربية مثلما انقرضت اللاتينية والهيروغليفية والسومرية وغيرها؟!

يعزو البعض عدم انقراض اللغة العربية إلى حفظها بالقرآن الكريم، كما تعهّد الله عزّ وجلّ. ولكن البعض الآخر يرى أن عدم استخدام العربية الكلاسيكية (الفصحى) بين العرب الآن، واستعاضتهم عنها بلهجات متعددة ومتغايرة أحياناً، هو شكل من أشكال الانقراض.. وإن لم يكتمل!

* * *

أعلنت منظمة اليونسكو قلقها البالغ من انقراض اللغات. وقالت في تقريرها الذي عنونته بـ «حيوية اللغات وتعرضها للاندثار» إن نحو 2500 لغة قد انقرضت أو في طريقها للانقراض من بين 6 آلاف لغة يتحدث بها سكان الأرض. وإن حوالي 97 في المئة من سكان العالم يتحدثون بواسطة 4 في المئة من لغات العالم، أي بالمقابل ينطق حوالي 3 في المئة من سكان العالم بـ96 في المئة من لغات العالم!

وقد عرّفت اليونسكو اللغة المهددة بالاندثار أو الانقراض، بأنها «تلك التي يتوقف ناطقوها عن التحدث بها، فيستخدمونها في عدد متدن أكثر فأكثر في مجالات التواصل، ويتوقفون عن نقلها من جيل إلى آخر». وقد يكون خطر تعرض اللغات للاندثار ناجماً عن قوى خارجية كالارتهان العسكري أو الاقتصادي أو الديني أو الثقافي، أو قد يكون سببه القوى الداخلية كالتصرف السلبي لمجتمع حيال لغته الخاصة. والسبب الخارجي أكثر ما يتجلى في نواتج الاستعمار أو الإبادة

الجماعية للسكان الأصليين، ولذا تحتل أستراليا المركز الأول في عدد اللغات المنقرضة حيث يقدر اندثار 90 في المئة خلال هذا القرن من حوالي 250 لغة أصلية أسترالية. وتحتل أميركا الشمالية المركز الثاني حيث يقدر زوال 80 في المئة من 175 لغة من لغات الهنود الحمر الأصليين.

ولا يخفى أن انقراض لغة ما يعني خسارة المعرفة الثقافية والتاريخية لأهل تلك اللغة، التي هي تجربة بشرية متمّمة لتراكم التجارب البشرية المتعاقبة.

وقد وضع خبراء اليونسكو في تقريرهم ذلك ستة عوامل رئيسة لتقييم حيوية اللغة، وبالتالي إدراجها أو عدم إدراجها في قائمة اللغات المهددة بالاندثار:

1- انتقال اللغة عبر الأجيال. 2- العدد المطلق للناطقين بها. 3- نسبة الناطقين من إجمالي عدد السكان. 4- التغييرات في مجالات استخدام اللغة (مثل أين ومع من يمكن استخدام اللغة ومجموعة المواضيع التي يمكن للناطقين معالجتها عبر استخدام اللغة). 5- مواجهة مجالات ووسائل إعلام جديدة. 6- مواد لتدريس اللغة ومحو الأمية (أي الاهتمام بتعليم اللغة في المدارس).

ويمكن للعرب الغيورين على لغتهم تقييم حجم الخطر الذي يتهدد لغتهم من خلال تلك المقاييس الستة. ويجب عدم التواكل على الحفظ القرآني للغة العربية، فالعربية محفوظة من الاندثار بفضل القرآن الكريم، لكنها ليست مصونة من الإهمال والتهميش في العالم

بفعل إهمال أهلها لها.

* * *

من طرائف الحديث عن انقراض اللغات، ما تم اقتراحه من بعض المختصين بوضع «محميات» للغات المهددة بالانقراض، وذلك عبر وضع الأقليات العرقية المهددة في محميات جغرافية طبيعية، في وضع مماثل للمحميات البيئية الطبيعية التي تنتشر في دول العالم الآن للحفاظ على الكائنات الحيوانية المهددة بالانقراض، مثل محميات الباندا والحبارى والحوت الأزرق وغيرها.

ألم نقل من قبل إن «اللغة» كائن حي؟!

انظروا.. إنها تشرب الحبر وتأكل الورق!.

الوانيتزمية!

اضطررت أو احتجت خلال أيام عدة قليلة ماضية إلى استخدام سيارة وانيت (نقل). فظهر لي خلال هذه التجربة من أخلاقيات القيادة ما لم أعهده لديّ.

تغيرت أخلاقي مع الناس في السيارات الأخرى، بل حتى هم تغيرت أخلاقهم معي. أصبحت لا أتحرج من قفز الأرصفة الصغيرة، أما الكبيرة فقد تحتاج إلى تجربة طويلة من قيادة الوانيت. كما لا أتحرّج من عبور الإشارات الصفراء المتعلقة بأذيال الخضراء. وبعد أن كانت تمر عليّ السنة أو السنتان دون أن أستخدم المنبه (البوري)، أصبحت في الوانيت أستخدم المنبه دون شعوري بأني أستخدمه عبثًا ودون حاجة، كما كنت أسيء الظن بأصحاب الوانيتات من قبل!

حتى أزرار ياقتي التي كنت أحرص دومًا على ربطها كعنصر أساسي من أشكال التهندم السليم، في الوانيت عندما التفتُّ إلى أزرار ياقتي ووجدتها مربوطة كالعادة، أحسست أني كالذي يتعطر بجوار مستنقع، فعمدت فورًا إلى فكها، حتى يكون شكلي متسقًا مع أخلاقي الوانيتية!

بإيجاز طفحت مني أخلاقيات كامنة، لم أكن لأعلم عنها لو لم أمتط صهوة «الوانيت»!

* * *

الكتابة عن تجربة قيادة «الوانيت» ليست جديدة، لكن الجديد قد يكون في إخضاعها للتحليل السوسيولوجي، وتعميمها على المناخ الثقافي الذي تنشأ فيه هذه الحزمة من الأخلاق الطارئة/ الكامنة.

ظاهرة «الوانيتزمية» يمكن تعميمها على كثير من مشاهد الحياة وفعاليتها.أعراض «الوانيتزمية» يمكن فرزها مثلاً عند المقارنة بين طالب يزاول حياته الدراسية في مبنى ومناخ فاخر، وطالب آخر في مبنى مدرسي بالكاد يتوافر على الحد الأدنى من الوسائل التعليمية والترفيهية، أي أنه يدرس في مبنى مدرسي «وانيتي»، وبالتالي فلا غرابة إن رأينا هذا الطالب يقفز على رصيف المنهج، ويتجاوز الإشارات الحمراء في علاقته مع معلمه، بل إنه لا يتحرج من الوقوف المفاجئ في طريق التعليم العام!

المعلم نفسه، الذي نطالبه بأن يكون وأن يكون، لا يستطيع أن ينفك عن أعراض المبنى الوانيتي والإدارة الوانيتية والتعامل الوانيتي معه من لدن قيادته.وعليه فليس من الإنصاف أن نقيّم ونقارن سلوك وأداء الطلاب الذين يدرسون في مبان «وانيتية» بالطلاب الذين يدرسون في مبان فاخرة، كما لا ينبغي بالمثل أن نقيّم معلمي المباني الوانيتية بالمعايير نفسها التي يقيّم بها معلمو المباني الفاخرة.

في الشأن الصحي، سنجد الظاهرة الوانيتية تنطبق بحذافيرها، ففي مركز صحي لا تتوفر فيه مقومات الصحة، لا يمكن للعامل في المختبر أن يلتزم بمعايير السلامة للفاحص والمفحوص كالتي يلتزم بها العامل في المختبر التخصصي مثلاً. التجربة يمكن تعميمها بشكل أشمل من مجرد قطاعات إلى «دول وانيتية» تصاب شعوبها بأعراض الوانيتزم داخل بلدها، وتزول عنها تلك الأعراض بمجرد انتقالها إلى بلد آخر غير وانيتي.

ظاهرة الوانيتزم تمنحنا الاقتناع بأن أخلاق إنسان ما في زمن ما ليست بالضرورة نتاجًا داخليًا مكرسًا عبر مدى طويل من التربية فحسب، بل هي أيضًا تفاعل واستجابة مع أخلاقيات المحيط الخارجية في ذلك الزمن السلوكي.

وعليه فليست أخلاقنا دومًا هي نتاجنا الذاتي، بل قد تكون نتاج الآخرين المحيطين بنا، نصاب بعدواها فنتخلّقه....؟!.

الملوخيزمية!

المدرسة الاجتماعية المصرية

لا يتفق الجميع على أن الملوخية هي أكلتهم المفضلة، لكنهم يتفقون على أنك إذا أردت أن تتناول الملوخية فلتتناولها على الطريقة المصرية.

ونتساءل دومًا: لماذا يتقن المصريون صنع الملوخية أكثر من غيرهم من الشعوب العربية؟وسأجازف بالقول إن الملوخية الناجحة هي التي تتميز بانصهار عناصرها ولزوجتها. وهكذا هي الملوخية المصرية، إذ تنصهر عناصرها حتى لا تتمكن من التمييز بين ورق ومرق الملوخية، فيؤدي هذا في ذروته إلى لزوجة تمنح الملوخية شكلها المميز عن باقي الإدامات الورقية الأخرى. هذه اللزوجة التي هي سر تميز الملوخية المصرية عن غيرها، لا يصطنعها المصري في ملوخيته، بل هي تأتي عفوية في سياق النسيج الاجتماعي المصري اليومي.

و«اللزوجة» هي مناط المدرسة السوسيولوجية الملوخية، أو

ما يمكن تسميته بـ«الملوخيِّزم»، حيث يتصف المجتمع المصري بلزوجة في عناصره وقضاياه وهمومه، لتتشكل كل هذه المقادير في إناء واحد هو «الشخصية المصرية». ويجب التأكيد أن هذا التفسير الملوخي للشخصية المصرية لا يأتي هنا على سبيل المدح أو الذم، بل على سبيل الوصف، أيًّا شُحن هذا الوصف بالسلب أو الإيجاب، تمامًا كما تروق لزوجة الملوخية لبعض متذوقيها دون الآخرين.

في مصر، ترى اللزوجة بين الأزهر والهرم، والشعراوي ولويس عوض، وعبدالباسط عبدالصمد وعبدالحليم حافظ، ومصطفى المنفلوطي وعادل إمام.

وفي مصر، تجد ملوخية الألقاب، فالفروقات بين أن تُنادى: يا«أمير» أو تُنادى: يا«هايف» هي فروقات لزجة ذات دوافع ملوخية!

لكن لماذا هذه اللزوجة في السوسيولوجيا المصرية؟

إنها تأتي منسجمة مع التركيبة النفسية للشخصية المصرية، فالإنسان المصري يتمتع بين الشخصيات العربية الأخرى بأعلى معدل من الرهافة والعاطفة التي تجعله سريع التقلب بين الغضب والرضا، والمدح والذم، والضحك والبكاء، والخشوع والفرفشة. ولأنه كذلك فإن اللزوجة الوجدانية هي أسهل الأساليب لسرعة التحول من الغضب إلى الرضا، حيث ليس ثمة فارق صلب بين هذين الشعورين، يستدعي بذل جهد كبير للتحول من أحدهما إلى الآخر، كما تفعل الشعوب العربية الأخرى. فعند الشعوب العربية الأخرى، عندما يتخاصم اثنان قد يمكثان أيامًا أوشهورًا أو أعوامًا على خصامهما،

أما المصريان المتخاصمان فإنك لن تلبث كثيرًا حتى تراهما يرتشفان الشاي معًا بصحبة آخر نكتة! ومردّ ذلك هو الحاجز المصري اللزج بين الصداقة والخصومة. ولذا فإن المصري قد يكون صديقًا لك مدى الحياة، رغم بعض الخصومات الطارئة، لكنه لا يمكن أن يكون عدوًا لك مدى الحياة.

المصريون هم الأقدر على إضحاك المشاهد العربي عبر الكوميديا المصرية، وهم أيضًا الأقدر على إبكاء المشاهد العربي عبر التراجيديا المصرية. المصريون هم الأكثر نكتة وابتسامة، وهم الأكثر موعظة ودموعًا. المصريون هم الأكثر وطنية، وهم الأكثر هجرة وتغرّبًا.

مصر، أم الدنيا.. وأم الملوخية!.

حفل «عزاء» فاخر

حين قال الشاعر العربي قديماً: حتى على الموت لا أخلو من الحسدِ، كان يبدع آنذاك صورة مذهلة ومغايرة للمألوف، وبالتالي صلحت أن تكون صورة شعرية أخاذة، أن يُحسد الإنسان حتى على موته.

الصورة هذه لم تعد الآن شعرية بما فيه الكفاية، فالبذخ والشكلانية اللذان بلغتهما المجتمعات الإنسانية حاليًا أصبحا لا يتصرفان حيال الموت كموعظة أو نهاية مطاف أو محطة توقف. الموت الآن ليس كل تلك الأجواء السوداوية أو الراعشة، لم يعد الموت محطة توقف، بل هو محطة تغيير ملابس!

لماذا أصبح الموت جزءاً من البرنامج الاعتيادي للإنسان، تسبقه فقرات كثيرة وتعقبه فقرات أكثر، بعد أن كان في زمن مضى هو الفقرة الأخيرة؟!

لم يعد الموت نهاية الحياة كما كان، بل هو الآن جزء من الحياة، هو إحدى فعاليات الحياة.

كيف استحال الموت إلى حدث دنيوي مثل: التخرج والترقية والزواج والسفر والاستثمار؟

هل هذا التحول بسبب كثرة الموت الرخيص.. بدم بارد أو حتى من دون دم؟!

هل هو بسبب الولوغ البروتستانتي في إناء الرأسمالية الشهي والمشوق واللامنتهي؟

تتعاظم الشهوات البشرية يوماً بعد آخر، حتى يكتشف الإنسان أنه يعيش في منظومة شهوة تامة يسميها الحياة. وعندها يصبح الموت جزءاً من هذه الشهوة بعد أن كان مرشداً لها.

يصبح الموت عملية استثمارية يتم إدراجها في المحفظة الرأسمالية الفعالة.

عند الموت، تنشر إعلانات التعازي بصيغة تكفل أفضل مردود تجاري للاستثمار في مشاعر العزاء.

لا أحد رأسمالياً يقبل بصرف آلاف الدولارات أو الريالات اليوم للتعبير عن مشاعره.. وبالذات مشاعر الحزن، قد يفعل ذلك على مشاعر الفرح والبهجة والمتعة، لكن مشاعر الحزن لا تستدعي كل هذا البذخ والهدر، فلماذا تصرف أموال طائلة في موقع تغني عنه دمعتان؟!

وحين قيل: حتى على الموت لا أخلو من الحسد، فهي أصدق ما تكون الآن في مراتب ومقامات الموت، فليس كل موت موتاً، وليست كل الجنائز سواء، وليست كل مجالس التعازي واحدة.

في السنة النبوية الشريفة حثٌّ على صنع الطعام لأهل الميت لأنهم شُغلوا عنه بما هو أهم، كان مجتمعنا يطبق هذه السنة الرحيمة بكل بساطة وعفوية وحميمية ترقق أحزان ذوي الميت وتخفّف فجيعتهم. ثم تطورت الفعالية وأصبحت لا تقتصر على ذوي الميت وصانعي الطعام فحسب، بل أصبح صانعو الطعام (وهم في الحقيقة جالبوه، في عصر الخدمات!) يدعون ضيوفاً فاخرين من المعزين لحضور العشاء، ثم تضخمت المشاعر الرأسمالية فأصبح يقام حفل عشاء فاخر (بوفيه مفتوح!) بمناسبة «الحزن» على وفاة فلان!

ليس جديداً بالطبع أن تتركّز مظاهر البذخ والتنافس هذه في المكان المخصص لعزاء السيدات!

آخر الصرعات المقززة التي لم يخطر في البال أنها ستتحقق بهذه السرعة، هو ما قامت به إحدى سيدات المجتمع العربي الفاخر مؤخرًا بطباعة «بطاقات دعوة» إلى نخبة من سيدات المجتمع لحضور حفل عزاء ابنها الفقيد... رحم الله أمه!

كانت ليلة عزاء بهيجة، حفلت بنخبة من السيدات المرموقات، مجلوبة بتشكيلة رائعة من الأزياء المتنوعة، وآخر صرعات ماكياج الحزن / المفرح، كما أثرتها تشكيلة من أصناف الطعام المتنوعة من المطبخ الهندي والإيطالي والعربي بالطبع.

كانت، بإيجاز، ليلة حزن سعيدة، تفرّق المعزون بعدها وهم يتمنون أن يزداد عدد المتوفين من هذه الأسرة الفاخرة، حتى يحظوا بمثل هذه الليلة البهيجة من الحزن!

في الغد، بالطبع سيتحقق الهدف المنشود، وسيصبح حفل عزاء تلك الأسرة المخملية هو مدار حديث النسوة.. هل كان عزاؤهم باهتاً يضيّق الصدر مثل عزاء عامة الناس، أم كان مختلفاً ومغايراً وأنيساً؟!

لا أحد يطلب من المعزين أن يأتوا إلى بيت العزاء كي يمضوا الوقت في البكاء، فبكاء أهل الميت وحزنهم يكفيهم، ولا حاجة لأن يستضيفوا أحزان الآخرين معهم، ولم يُشرع العزاء لتأجيج الأحزان بل للتخفيف والسلوان. لكن من دون أن يتحول ذلك إلى ليالي سمر وبذخ واستثمار وعلاقات عامة وعقود وصفقات، تُشرب بعدها كؤوس العصير في نخب الميت!

هل أنت مدعو الليلة إلى حفل عشاء فاخر أم إلى حفل عزاء فاخر؟!

لا تقلق، فلا فرق كبيراً بينهما سوى الجنازة... جنازة «الحي»!.

قرية كونية أو كائن قروي

قبل مئة عام كان آباؤنا يرون الكون كبيرًا فسيحًا لا يمكن الوصول إلى أطرافه إلا برحلة تمتد إلى شهور أو سنوات. مقابل ذلك الكون الكبير كانت الأحلام والأماني والطموحات لذلك الجيل صغيرة وبسيطة، كان يريد أن يقتطع من ذلك الكون الكبير مساحة صغيرة تكفي لمسكنه من غرفتين أو ثلاثة، هذا على صعيد المكان، أما على صعيد الزمان فإن الإنسان آنذاك يريد من ذلك الوقت الفسيح (حتمًا لم يكن اليوم 24 ساعة فقط!) سويعات قليلة ينجز فيها «مشروعه» الزراعي في حقله الصغير أو الصناعي في دكانه المحدود.

ما الذي يحدث الآن؟

أمانينا وطموحاتنا تكبر وتتمدد بينما الكون يصغر وينكمش، الأراضي السكنية تتزاحم بينما نريد بيوتًا واسعة فسيحة، الوقت يضيق ويمرق (حتمًا لم يعد اليوم 24 ساعة!) وجداول أعمالنا تتمدد ومواعيدنا واجتماعاتنا تتكاثر.

الذي حدث هو أنه لم يتحول العالم الفسيح الضخم إلى قرية

كونية صغيرة فقط، بل أيضًا تحول الإنسان من كائن قروي صغير إلى إنسان عالمي ضخم!

أي أن العالم تضاءل من تضخم وأن الإنسان تضخم من تضاؤل.

وهو ما جعله يشعر بأنه في زحام دائم.. زحام جسدي، وزحام نفسي، يفضي هذا أحيانًا إلى ازدياد الرغبة الإنسانية في القتل، القتل الدولي والقتل الفردي، ربما رغبة في تخفيف الزحام!

ما الذي حوّل الكون إلى هذا الضيق والتصاغر؟ لا ريب أن وسائل النقل المتطورة كان لها دور كبير في تقليص الجهات الأربع، لكن المؤكد أن وسائل الإعلام بوصفها أسرع وسيلة نقل هي المؤثر الأكبر في تصغير العالم وتكبير الإنسان، حتى أصيب بالشيخوخة المبكرة بحيث أصبح الإنسان الآن يصل مرحلة الشباب وقد اطلع ورأى عدداً حافلاً من الخبرات والمعلومات والحروب والملاهي والجنسيات والمناخات ما لم يطلع عليه شيخ كبير بعمره الممتد في الزمن السابق.

هل كان يمكن لإنسان ما قبل نصف قرن أن يعرف عن إنفلونزا الطيور التي تفشت في الصين قبل أن تصل إليه، وأن يعرف عن صواريخ سكود قبل أن تسقط على رأسه، وأن يعرف عن ثورة الجياع في فرنسا قبل أن يشبع هو؟! إذا كانت وسائل الإعلام هي التي أصابت الإنسان بالشيخوخة المبكرة، فهل وسائل الإعلام نعمة أم نقمة، هل نفعت الإنسان أم ضرته؟

قد تكون نفعت وقد تكون ضرت، لكن المؤكد أن الإنسان لم يعد

قادرًا على العيش بدون وسائل إعلام، إلا إذا رضي أن يعود للتحول من إنسان عالمي ضخم إلى إنسان ضئيل في بقعة فسيحة يبحث عنها هو بنفسه في الكون الضيق!

أي أن الإنسان الآن بين خيارين: أن يعيش في قرية كونية، أو يعيش كائنًا قرويًا!.

من «حديقة الحيوان»
إلى «حديقة الإنسان»

التهديد بالعمليات الإرهابية والانتحارية التي أصبحت تغمر أرجاء المعمورة «المدمورة»، جعل السياح الأمريكان بالذات يعيدون النظر في ترتيب جدولهم السياحي صيف هذا العام.

فشرق آسيا موبوء، والمغرب العربي ملغوم، والشرق الأوسط متفجر، وعواصم أوروبا مليئة برسائل التهديد.

ولذا لم يجد الأمريكيون سوى القناعة بالسياحة في بلادهم هذا العام، واكتشاف أمريكا من جديد.

هكذا اقتنع السائح الأمريكي بصيف بلده، لكن ماذا عن العربي؟.

هل يمكن للسائح العربي أن يتنازل عن إجازة صيفية تحت تهديد السيف.. سيف الإرهاب؟!.

أيهما أشد ضغطًا على ذهنية السائح العربي: الصيف أم السيف؟.

صيفنا أشد إيلامًا من صيف الأمريكان، وبلادنا أقل استيعابًا من بلاد الأمريكان، فهل يمكن للسائح العربي أن يستجيب لضغوط

التهديدات التي استجاب لها الأمريكي، ثم يقتنع بإعادة اكتشاف بلاده صيف هذا العام، كما اقتنع الأمريكي من قبله، فيعمد السعودي للتصييف في السعودية، والمصري في مصر، واللبناني في لبنان، والكويتي في الكويت، أي تتحول الإجازة الصيفية إلى «سياحة موضعية»؟.

إذا كانت هذه الهواجس التي يرددها الإعلام السياحي صحيحة، فإن المؤكد هو أن الإرهاب سيحول الكرة الأرضية إلى شبه حديقة حيوانات، ليست حديقة مفتوحة «سفاري»، بل حديقة حيوانات مغلقة، يبقى كل نوع من بني البشر في قفصه لا يتجاوز إلى قفص الآخر أو إلى الخروج ما بين الأقفاص.

إننا بعد أن اكتشف الإنسان فكرة «الأقفاص» التي يحد بها من اعتداء الحيوانات على بعضها في البراري الموحشة، نوشك أن نقع في نفس الفخ الذي وضعنا الحيوانات فيه، إنه فخ الأقفاص.. أقفاص المدن، ثم ربما أقفاص البيوت إذا تفشى الإرهاب، ثم تحولت شوارع المدينة الواحدة إلى سفاري موحشة.

ولأننا سنبقى في أقفاص بيوتنا ومدننا، نخشى السفر والخروج إلى غيرها بفضل الإرهاب «الأخوي!»، فإن حدائق الحيوانات «الحقيقية» التي صنعناها من أجل تسليتنا وتذكيرنا دوماً بأننا من بني البشر الكائنات الأرقى! ستصبح مهجورة بلا زوار، وبالتالي سيتطوع آخر إنسان يدخل منزل قفصه، بكسر أقفال حدائق الحيوانات في مدن العالم، لتنطلق الحيوانات التي كنا نعدها متوحشة تجوب شوارع

المدن وحدائقها، ويعود كل حيوان إلى وظيفته السابقة.

فيعتلي الأسد عرشه المخطوف، ويتوازع الذئب والطاووس والقرد والفيل مؤسسات الإعلام والتعليم والمالية والتخطيط والصحة والمياه، ويمسك الثعلب بمنصب رئيس المفاوضات مع الشعوب الحيوانية الأخرى، وتكون الحرباء هي المتحدث باسم ملك الغابة الحديثة! ويبقى الحمار هو آخر الحيوانات بحثاً عن الوظيفة التي تتناسب مع مؤهلاته!

وهكذا تدير الحيوانات شؤون الكرة الأرضية بدون إرهاب.

وإذا أحسّت هذه الحيوانات يومًا بضغوط العمل، فإنها تتسلى بزيارتنا في «حديقة الإنسان»!..

اتصل .. تنفصل

شبكة الانفصالات!

يقولون إننا نعيش الآن في زمن: ثورة الاتصالات.

ولو أنهم استنطقوا الزمن، لأدركوا أننا نعيش: ثورة الانفصالات!

قبل أن تحل علينا ثورة الاتصال، كانت الوسيلة الوحيدة للاتصال بين الناس هي التواصل.

فحين لم يكن آنذاك هاتف أو فاكس أو جوال أو بريد إلكتروني كان الخيارالوحيد للاتصال بين اثنين هو الالتقاء وجهاً لوجه، وبث الرسالة الوجدانية أو العملية المشتركة بينهما مشافهة، عبر الصوت والصورة واللمس.

واستمر الناس على هذه الوسيلة الحميمة للتواصل بينهم، لا ينافسها وسيلة أخرى، سوى البريد المستعمل بين الأباعد الذين تفصلهم الصحاري والبحار، حتى جاء الهاتف فأصبح وسيلة للتواصل تكتفي بعامل الصوت فقط، وتزحزح عامل الصورة الحية الملموسة.

لكن الهاتف لم يكن يتوفر في كل حين، فهو أداة تخدم الكينونة الثابتة لا المتحركة. وبالتالي فلم يكن الهاتف يحقق دور «شبيك لبيك..هاتفك بين يديك» حتى جاء الجوال فكان هو المارد الذي يخرج من جيبك كلما أردت الاتصال بأحد.

ولذا فقد استطاع الجوال أن يسحق كثيراً من الزيارات والاتصالات المباشرة التي لم يكن الهاتف الثابت قادراً على دحضها دوماً..وفي الوقت المناسب.

أصبح الجوال هو الأداة السوسيولوجية الأولى في تبادل التهاني والتعازي والأخبار والمزحات، ولم تعد التهنئة برمضان أو العيد أو المولود الجديدتستوجب منك زيارة وضيافة وبروتوكولات تستهلك منك وقتاً وجهداً ومشاعر كثيرة.

أصبحت مكالمة بالجوال تغنيك عن زيارة حسية لأحد أقاربك، وأصبح الصوت كافياً لإبلاغ المشاعر، وبالتالي فقد ازدادت مدة الانفصال بين فردين بفضل الجوال أضعاف ما كان من ذي قبل.

لكن الأمر لم يتوقف عند ذلك، فقد جاءت خدمة رسائل الجوال لتريح من عناء مكالمة مجاملة قد تستغرق ثلاث أو خمس دقائق، يمكن اختزالها في عبارة محنطة تكتب في دقيقة واحدة ثم تبث إلى عشرات الأقارب والأصدقاء في دقائق معدودة، كانت بالكاد تكفي لتهنئة اثنين أو ثلاثة منهم حسب الحرارة..حرارة الحفاوة وليس حرارة الهاتف!

وأصبح الفرد منا يتفاعل وجدانياً مع تهنئة تصله من قريب أو

صديق لمدة ثوان معدودة فقط، هي مدة قراءة الرسالة..إن كان سيقرؤها كاملة في زحمة الرسائل المتراكمة.

وهكذا نقلتنا ثورة الاتصال إلى مرحلة جديدة من الانفصال، فبعد الانفصال العيني (الحضوري) والاستعاضة عنه بالاتصال الصوتي عبر الهاتف، ها نحن ندخل مرحلة من الانفصال الصوتي، حيث نستعيض عن الصوت بالحروف الصامتة الجامدة عبر الرسائل الهاتفية التي لا علاقة لها أبداً من حيث المفعول والتأثير بالرسائل البريدية القديمة، المبلل حبرها وورقها بدموع الشوق وعبارات المحبة المشتعلة.

وليس غريباً إن بدأ الناس الآن يتذمرون من رسائل التهنئة الجوالية التي تصلهم في الأعياد، وخصوصاً التي تستهلك أكثر من ثلاثة أسطر وثلاث ثوان لقراءتها. لذا فقد يأتي زمن ليس ببعيد يصبح تبادل التهاني فيه بين الناس عبر رسالة إشعاعية خاطفة ترمز إلى المناسبة المحددة، بحيث يصدر دليل للمشاعر على النحو التالي:

- أشعة إكسX: تهنئة بشهر الصوم.
- الأشعة فوق البنفسجية: تهنئة بعيد الفطر.
- الأشعة تحت الحمراء: تهنئة بعيد الأضحى.
- الأشعة الصوتية: تهنئة المولود الجديد.

ثم يأتي على الناس زمان يضيقون فيه ذرعاً بالوقت الذي يستهلك في الإحاطة بمرور موجة إشعاعية/ وجدانية، ويجدّون في البحث عن بديل أسرع..وسيجدونه حتماً.

كل هذه المساعي الوحشية لتقليص الحاجة إلى الالتقاء بين الناس، وتعزيز الانفصال بين أفراد المجتمع وشرائحه، ومع ذلك نسمي مايحدث: ثورة الاتصال؟!

إنها بحق ثورة الانفصال..

وإن شعار هذه الثورة هو:

اتصل..تنفصل!.

جمهورية القرار!

إذا كان هناك ما يسمى بجمهورية أفلاطون وجمهورية الخوف، فإني سأزعم وجود جمهورية أخرى هي: جمهورية «القرار».هذه الجمهورية مليئة بالجنود الذين يُعدّون القرار، والضباط الذين يؤشرون القرار، ثم الزعيم الذي يوقع القرار، وأخيراً: الشعب الذين يقرؤون القرار.ألم تر أنها جمهورية متكاملة العناصر، لا ينقصها سوى شيء واحد فقط: العمال الذين ينفذون القرار!

«جمهورية القرار» مليئة بكل شيء.. إلا التنفيذ!

كنت في الصغر أسمعهم إذا أرادوا مدح أحد قالوا إنه: «رجل.. صاحب قرار».الآن كبرت.. وأدركت أن ليس مهمًا أن تكون قادرًا على اتخاذ القرار.. بل أن تكون قادرًا على تنفيذ القرار. يخطئ من يظن أن عبارة: «إنفاذه والتمشي بموجبه»،هي المفتاح السحري لكل قرار. بل بدأت أقتنع بأن هذه العبارة التي تستخدم بوصفها «قفلة» لكل قرار، هي بالفعل «القفل» الذي تغلق به حافظة القرارات «المجمدة»!

ملايين الناس يتخذون قرارات كل يوم.. لكن قلة من الناس من

تنفِّذ قراراتها.فالقرار ليس أمرًا من السهولة بحيث ينتهي بمجرد التوقيع عليه، بل هو فعليًا يبدأ بعد التوقيع عليه.إنه يمر بعدة مراحل أبرزها: صنع القرار، ثم اتخاذ القرار، ثم دعم القرار، ثم حماية القرار من قرار مناقض له. (والأخير هو ما يمكن أن يسمى: الشِّرك الإداري الخفي!).

لو استنصحني صاحب القرار في المؤسسات الحكومية، بالذات الحكومية، لنصحته بأن ينشئ «إدارة ترشيد القرار»، وتتكون هذه الإدارة من: قسم لصنع القرارات، وقسم لاتخاذ القرارات، وقسم لدعم القرارات، وقسم لحماية القرارات، والقسم الأهم هو: قسم فحص تنفيذ القرارات.

من يجرؤ أن يتخذ «القرار» بإنشاء: «إدارة ترشيد القرار»؟!.

يقولونات

ويقولون إن فلانًا أُقيل من عمله لأنه...، ويقولون إن المؤسسة الفلانية سيتم إغلاقها لأنه ثبت أن فيها...، ويقولون إن فلانًا فُصل من رئاسة التحرير بسبب...، ويقولون إن القرار الفلاني لم يصدر إلا من أجل...

ويقولون ويقولون ويقولون...

هذه «اليقولونات» هي جزء من المكون الثقافي لمجتمعنا، وهي واحدة من أبرز وسائل الاتصال بين الناس والتفاعل المجتمعي. لكنها أيضًا أحد أهم مصادر الخبر في خطابنا الإعلامي الشعبي. وقد استعصت على كل محاولات الإعلام الرسمي كسر مجاديفها، وإفقادها مصداقيتها وقوتها عند الناس.

حتى خُيّل لبعض المراقبين أن المؤسسة الرسمية تتعمد أحيانًا الإعلان عن عكس ما «يقولون» لا لشيء سوى لمخالفة ما «يقولون»، وإن كان صحيحًا في الأصل، حتى تفقد هذه الـ«يقولون» ثقتها ومصداقيتها عند الناس.

لكن هذه المحاولات لاغتيال «يقولون» باءت بالفشل، فاليقولونات ما زالت تعيش بين الناس وتلهو وتمرح في عقولهم. السؤال المهم هو: هل أسلوب الدولة المناسب في تغييب «يقولون» عن حياة المجتمع هو الاغتيال، أم أن الأسلوب الأمثل لتحقيق ذلك هو تجفيف منابع «يقولون» عبر إشاعة الشفافية والمصارحة والوضوح، وتطبيق سياسة الحوار المفتوح.. وليس الباب المفتوح فقط؟!

كما ينبغي أن ندرك أننا مهما تصارحنا فستبقى «ثقافة اليقولونات» جزءًا من ثقافة المجتمع العربي، لكنها ستخفّ عبر الشفافية، حتى تصل إلى درجة طبيعية مشابهة لدرجتها في المجتمعات المتحضرة.

* * *

... و«يقولون» إن بعض الدول العربية تتعمد الحفاظ على الثقافة اليقولونية، وعدم السعي لمعالجتها، باعتبارها جزءًا من التسالي والترفيه الذي تحرص الدولة، كل الحرص، على توفيره لمواطنيها....؟!.

إعلان «سرّي»!

(1)

إعلان وسري معًا، نقيضان.. عَمرك الله كيف يجتمعان؟

هما نقيضان حقًا لا يجتمعان إلا في مجتمع متناقض. مجتمع يشتهي دومًا إعلان الأسرار وكتم المعلنات، لا لشيء سوى أن كشف الأمور والأخبار والإجراءات السرية يمنح كاشفها حظوة في المجتمع وتميزًا ونفوذًا وأنه إنسان «واصل».

أما لماذا يشتهي هذا المجتمع أيضًا كتم وإسرار الأخبار والقرارات والحقوق المعلنة، فلأنه يدرك أن إتاحة وإعلان هذه الحقوق للناس جميعًا سوف يفقده قدرته وانفراده بالتهام هذه الحقوق وحده في تمركزه كإنسان «وصولي»!

(2)

«الأسرار» في مجتمعنا تتذبذب بين طرفي نقيض، طرف يجعل كل

شيء سرًا، ما يستحق وما لا يستحق، هو يكتم الأسرار ويكتم معها مجموعة من المعلنات المحيطة حتى يضمن أنه ابتعد عن الاقتراب من حقل الأسرار، ولذا فلازمته في الحديث دومًا حتى دون أن يشعر هي عبارة: «بيني وبينك...»، ثم يقول ذلك الخبر أو الحدث الذي تكتشف لا ينبغي ولا يستوجب أن يكون محيط العلم به محصورًا بينك وبينه فقط.

وفئة أخرى من المجتمع تعلن كل شيء حتى ما ينبغي عدم إعلانه من منطلق الشفافية المهيمنة، التي تصل إلى درجة هتك أسرار وخصوصيات الناس.

هتك الأسرار أو بناؤها من لا شيء هي عملية بشرية يحقق ممارسوها من ورائها مصالح اجتماعية (بناء علاقات) ومصالح مالية (بيع أسرار) ومصالح نفسية (شعور وهمي بالأهمية).

(3)

إذا أردت لخطاب أو إجراء أن يذيع بين الناس فاكتب عليه «سري»، أما إذا أردت أن يكون شائعًا للغاية فاكتب عليه «سري للغاية»!!.

نون النشوة!

(1)

أحياناً كثيرة... تكون أعقد الأمور أتفهها!

وفي النظام البيروقراطي كثيراً ما تكون كتابة الخطابات الرسمية من جهة إلى جهة ومن مسؤول إلى مسؤول مهمة عويصة، قد لا يجيدها المسؤول/ المدير، لكنه أيضاً قد لا يجد من يجيدها له بالنيابة في السكرتارية أو الشؤون الإدارية.

وإذا استلمت خطاباً رسمياً داخل نطاق العمل، فإنني عادة - ومعظمكم ربما تفعلون ذلك - أتجاوز التحايا والديباجة وأبحث عن زبدة الخطاب، ثم أقرر فيها ما أشاء دون أن ألتفت إلى الخاتمة إن كانت: «مع أطيب تحياتي» أو «مع تحياتي» فقط.

وأتساءل في نفسي: هل هم يقرؤون خطاباتنا التي نحبرها ونقشرها لهم بنفس «القراءة القفزية» التي نقرأ بها خطاباتهم؟!

ثم أقرر أن أبتعد عن الشكليات، وأكتب الخطابات بأي صيغة كانت، المهم أن تتضمن موضوع الخطاب بشكل واضح، ثم لتكن

التحايا التي في رأس وذيل الخطاب أياً تكن من النعومة أو الخشونة.

ثم بعد هذا «القرار» بقليل أتراجع وأقرر أن لغة الخطاب هي عينة نموذجية من لغة المسؤول وشخصيته، ولذا فلا بد من الاهتمام بلغة الخطاب حتى لو استنفد الأمر تصحيح مسودتين أو ثلاث أو خمس قبل توقيع النسخة الأخيرة من الخطاب.

(2)

إذا اتفقنا على ما ذكر أعلاه من أن أعقد الأمور أتفهها، فإن من أعقد عناصر الخطاب الرسمي هو «ضمير المتكلم».

فالذين يكتبون بضمير المفرد، مثل: «أشير إلى خطابي إليكم...»، «أعبر لكم عن سعادتي»، و«لذا فإنني أرى...»، «وفي الختام... أعرب لكم عن جزيل شكري، وتقبلوا خالص تحياتي»، تُقرأ خطاباتهم عندما تصل إلى الضفة الأخرى بضمير «الأنا» المتضخم وليس بضمير «المفرد» المتواضع!

والذين يكتبون بضمير الجمع، هرباً من تهمة الأنا، يقولون: «نشير إلى خطابنا إليكم...»، «نعبر لكم عن سعادتنا...»، «ولذا فإننا نرى...»، «وفي الختام... نعرب لكم عن جزيل شكرنا، وتقبلوا خالص تحياتنا»، فتُقرأ خطاباتهم في الضفة الأخرى بضمير «نحن» المعظمة، وليس بضمير الجمع والتشاركية وفريق العمل!

أي إنك متهم على أي النونين كان اختيارك... نون الأنا المتضخمة والذاتية، أو نون النحن التي هي نون النشوة والعظمة.

وهكذا أصبحنا بين فكي كماشة الخطابات الرسمية، «نوني» المخاطبات البيروقراطية: نحن ونا، ويمكن جمعهما في مختصر بيروقراطي هو: لغة «نحنا».. إذاً ما الحيلة؟!

حتماً لن يكون الحل هو باستخدام لغة «نحنا» المشتركة، إلا إذا صدر قرار بتعيينك مدير مكتب الوزارة في لبنان، «ونحنا ما بنعرف إمتى بدّو يصدر هالقرار»!

كما أن استخدام اللغة العائمة - التي يستخدمها بعض المديرين - وهي المستندة على تغييب ضمير المتكلم كلياً، وإبداله بضمير الغائب أو ما يشبهه، يعده بعض الذين يستلمون مثل هذه الخطابات لغة تهميشية لا تقيم اعتباراً للمخاطب، فهي لا تقول: «أعرب لكم» أو «نعرب لكم»، بل تقول - هرباً من الأنا والنحن -: «مع الإعراب لكم...»، وبذا تبدو كأنها لغة استعلائية تهمش الخطاب المباشر والتواصل بين المرسل والمرسل إليه.

وهنا عدنا مرة أخرى - ثالثة - إلى تهمة الاستعلاء والأنا والعظمة!

إذاً - مرة أخرى أيضاً - ما الحيلة؟!

الحيلة الوحيدة هي أن تعود إلى ما ذكر في أول هذا المقال حول «القراءة القفزية»، بحيث لا تشغلك الشكليات كثيراً عن مضمون الخطاب، إلا في حالة واحدة... إذا كان مضمون الخطاب - كما هو في كثير من المخاطبات الرسمية - أتفه من أن يتم الاهتمام به أو يتخذ عليه أي إجراء، وإنما لزيادة رصيد رقم الصادر وماراثون التوقيعات، عندها يجب أن تهتم بالشكليات الأكثر أهمية من المضمون!

متى؟

شيخوخة الشباب

(1)

هاتفني صديق الدراسة الحميم قائلاً: علمت أنك ستأتي الرياض قريباً بإذن الله في إجازتك السنوية. سأخبر «الشباب» بذلك، فهم مشتاقون لك مثلما أنت مشتاق لهم بالطبع. ضع في برنامجك من الآن طلعة «شبابية» في إحدى استراحات أو مخيمات الثمامة، في أمسية صحراوية تحت أقمار ليالي نجد الصيفية التي طالما استمتعنا بها مع «الشباب»!

صديقي هذا الذي يحدثني بلغة «الشباب» تجاوز عمره وعمري أيضاً السادسة والأربعين عاماً!

هو يستخدم مصطلح «الشباب» لوصفنا منذ 30 عاماً، أيام المرحلة الثانوية، وما زال يتمنّع عن فحص تاريخ صلاحية مصطلحاته الشبابية التي يستخدمها بكل أريحية حتى اليوم!

هل هو يدرك أبعاد الأرقام المعلنة أمامه: 16-30-46، أم أنه من طائفة الذين لا يؤمنون بأن العمر أرقام؟!

التمادي في استخدام مصطلح «الشباب» ليس حكراً على صديقي، فمسمى «الأدباء الشباب» الذي ظهر في الثمانينيات، استمر حتى اليوم يوصف به شعراء وروائيون، على رغم أنهم يعطون قصائدهم أو قصصهم الآن لأحفادهم لطباعتها على الكومبيوتر! أحد الشعراء «الشباب» لم يعد حريصاً على المشاركة في الأمسيات الشعرية وإلقائه شعره بنفسه كما كان.. بسبب سقوط أسنانه! سيقول لي أحدهم: مسمى الأدباء الشباب، لا يصف أعمارهم بل مضامين وأساليب نتاجهم الأدبي. أُدرك ذلك، لكني أدرك أيضاً أن المصطلح عندما ظهر في بداياته كان يصف جيلاً من الأدباء هم في مرحلتهم العمرية من «الشباب»، ولذا التبس المصطلح بين المدلول العمري والمدلول الأيديولوجي! كان مصطلح الأدباء الشباب حداً فاصلاً وصارماً بين جيل مقهى الفيشاوي وجيل مقهى «ستاربكس»!

انسحب مسمى «الشباب» المترهل في أحايين قليلة على مجالات أخرى: أئمة شباب (فيما بعد أحداث الحرم المكي الشريف قبل 29 عاماً!).. رجال أعمال شباب (استفادوا من طفرة عام 1978).. صحافيون شباب (أدركوا أواخر عصر التنضيد بالرصاص!).

(2)

هل تقتصر هذه النزعة التشبّبية على الساحة السعودية أو العربية فقط؟

حين استلم فلاديمير بوتين رئاسة روسيا وُصف بالرئيس الشاب وهو في الـ48 من عمره، هو بالفعل رئيس شاب مقارنة بالرؤساء الهرمين الذين كانوا لا يتسلمون رئاسة روسيا (الاتحاد السوفياتي السابق) قبل أن يبلغوا سن اليأس.. من الرئاسة!

باراك أوباما (47 عاماً).. يظن المحللون السياسيون أن أكبر تهديد واجه فوزه برئاسة أميركا هو مدى قبول الناخب الأميركي لرئيس شاب!

ما الذي حدث في العالم؟ هل كبرت الأعمار أم صغرت العقول؟ أعني: هل ازداد معدل الأعمار البشرية بحيث تم تقديم الأربعينات والخمسينات إلى خانة الشباب؟ أم صغرت العقول وتأخر سن النضوج بحيث أصبح الإنسان يبلغ الأربعين والخمسين وهو ما زال يفكر بعقل سن العشرينات والثلاثينات الشبابي؟!

في دراسة أردنية عن متوسط العمر عند الزواج، تبين أن هذا العمر قد ارتفع عند الذكور من 20 سنة عام 1961 إلى 26 سنة عام 1979 ووصل إلى 30 سنة عام 2004، وفي المقابل ارتفع متوسط العمر عند الزواج بالنسبة للإناث من 17 سنة عام 1961 إلى 21 سنة عام 1979 وإلى 26 سنة عام 2004. هل هذا التقادم في سن الزواج له علاقة بالنضوج والأهلية والوعي أم بالقدرة الاقتصادية والتأهيلية؟

أما بشأن الشق الأول من التساؤل: إذا كان معدل الأعمار البشرية قد ارتفع خلال العقود الماضية بحيث أصبح هناك مبرر لتسمية من هم في الخمسين بالشباب، فقد كشف تقرير لمنظمة الصحة العالمية

عن معدل الأعمار في دول العالم، وكان متوسط عمر الذكور في جمهورية سان مارينو هو الأعلى في العالم حيث يبلغ ثمانين عاماً، بينما واصلت العجوز اليابانية تفوقها بالنسبة إلى متوسط عمر الإناث حيث تبلغ 86 عاماً. في حين أن أقصر معدل عمر للذكور يوجد في جمهورية سيراليون بأفريقيا حيث يصل متوسط العمر إلى 37 عاماً فقط، وهي نفس النسبة لمتوسط عمر الإناث في دولة سوازيلاند التي احتلت المركز الأخير مع سيراليون في العالم!

من جهة أخرى تدعو بالتفاؤل بعمر مديد بإذن الله، ومزيد من الأدباء الشباب (!)، فقد أبانت بعض الدراسات الإحصائية أن معدل الأعمار البشرية كان في عام 1800 يبلغ 25 عاماً، وفي عام 1900 أصبح 48 عاماً، ثم ارتفع في عام 2000 إلى 80 عاماً، ثم تبشر تلك الإحصاءات بأن معدل الأعمار سيصل عام 2025 إلى 120 عاماً.

هذا الإشكال في ارتفاع معدل الأعمار البشرية، فتح جدالاً كبيراً ومثيراً حول بعض القضايا التنموية والتنظيمات الاجتماعية، من أبرزها النقاش حول إعادة تحديد سن التقاعد. حيث تكمن إشكاليتان رئيسيتان أولاهما: تراكم أعداد هائلة من المتقاعدين الذين يعيشون بعد تقاعدهم سنوات طويلة يقضمون فيها مبالغ هائلة من صندوق التقاعد الذي لم يحسب حساباً لهذا البقاء الطويل لهم بعد ترك الوظيفة!

الإشكال الثاني أن الإنسان أصبح يتقاعد في الستين من عمره، أو أكثر قليلاً عند دول أخرى، وهو ما زال في ريعان شبابه وكامل حيويته

وعطائه، فلماذا يتقاعد وهو قد تجاوز للتوّ سن الشباب؟!

لذا وبسبب هذين الإشكالين وإشكالات أخرى ستظهر لاحقاً، تدرس بعض الدول رفع سن التقاعد إلى 70 عاماً، رغم ما سيجلبه مثل هذا القرار من ارتفاع مخيف في معدل البطالة. بل تتساءل بعض الدوائر الإحصائية المختصة إن كان سيتم رفع سن التقاعد عام 2050 إلى 85 عاماً، رغم أن الموظف سيتقاعد حينها ويبقى له أكثر من 40 عاماً من العمر، يغرف فيها من صندوق التقاعد أمام أنظار «الأطفال» العاطلين عن العمل في سن العشرين والثلاثين!!

وكانت لجنة خبراء منظمة الصحة العالمية قد اختارت في عام 1972 سن الخامسة والستين ليكون بداية لتسمية الإنسان بـ«المسنّ»، وتخفيفاً من قلق الستينيين فقد تم تقسيم المسنين إلى ثلاث فئات: المسن الصغير أو النشط من 65-74 عاماً والمسن الكبير من 75-84 والمسن الهرم من 85 عاماً فما فوق. ولكنها ستضطر الآن أو عام 2050 إلى استدعاء خبرائها لإعادة تقسيم مسميات المسنين وفق معدل الأعمار الجديد.

طبعاً لا يخفى على القارئ الفطن أن ارتفاع معدل الأعمار للإنسان الغربي هو بسبب تقدم الخدمات والكشوفات الطبية في بلاده، أما ارتفاع معدل الأعمار للإنسان العربي فهو بسبب التقدم في إمكانات وتسهيلات الطيران والفنادق في سبيل العلاج في الخارج!!

(3)

في الأسبوع القادم بإذن الله سألتقي أصدقائي «الشباب» في الرياض، لنتذكر سوياً مرحلة «الطفولة» أيام دراستنا الجامعية!.

كل عام وأنتم بغير!

قبل أيام، أشرقت على الكون سنة هجرية جديدة، بالتزامن مع سنة ميلادية جديدة أيضاً، داعياً الناس إلى التجديد والتغيير في ذواتهم.. بدءاً، وبين ذواتهم والآخرين.. تالياً.

وقد سبق أن كتبت قبل سنوات في مكان آخر تحت العنوان نفسه أنه لا يخاف من التغيير سوى الجبناء والكسالى، الجبناء يخافون لأن عدم ثقتهم بأنفسهم تجعلهم يخشون أن التغيير سيقودهم إلى الأسوأ، والكسالى لا يحبون التغيير لأنهم يدركون أنه سيُلزمهم ببذل جهد إضافي لا يمكن للتغيير والتطوير عادة أن يتحققا من دونه، لذا فهم يؤثرون رخاء الجمود على مشقة التطور. وهم يدركون أو لا يدركون، سيان، أن رخاء الجمود سيتحول مع الزمن إلى رخاوة، لا مستمسك فيها للذة الشيء والوقت والمكان.

والخوف المرَضي الذي يغشى بعض الأفراد أو المجتمعات من فكرة التغيير هو الذي يزيّن الجمود في أعين «الجمادات البشرية»، ويغيّب المفهوم الراسخ بأن الأصل في التغيير هو التطور أي التحرك

الإيجابي، وليس الانحراف أي التحرك السلبي، وأنه إذا حدث الانحراف أثناء عملية التغيير فإن المشكلة ليست في مبدأ التغيير، بل في الأدوات والمضامين التي حُشيت بها حركة التغيير.

بعثات الأنبياء كلها كانت عبارة عن حركات تغيير إيجابية، لم تستجب لمقولة الجمادات البشرية: «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم لمقتدون».

حركات الإصلاح الاجتماعي هي أيضاً حركات تغيير على مستوى المجتمع. كما أن توالد الزوجين هو حركة تغيير فطري على مستوى الأسرة. بل حتى على مستوى الفرد (الكائن)، فإن التغيير اليومي في خلايا الجسم هو الذي يرمز إلى الحياة، وتوقفها عن التغيير أو التجديد لا يتم إلا تحت سلطة الموت، وهي أكبر سلطة تغييرية مهيمنة على الإنسان في تحويله من الحياة البشرية إلى الحياة الموتيّة!

إذا كانت الحياة لا تستمر إلا تحت طائلة التغيير، فلماذا نخاف ونتهرب منه، حتى يطالنا راضخين التغيير المميت؟! الذين تمر عليهم الدقائق والأيام والسنوات من دون أي تغيير في مفاهيمهم وقناعاتهم وعلاقاتهم ورؤاهم ووسائلهم في التفكير ليسوا أصحاب الثوابت، كما يظنون، بل هم أصحاب المثبتات / المثبطات!

الذين يفكرون وهم في الأربعينات من عمرهم بالأدوات والمنهجيات نفسها التي استخدموها في العشرينات من عمرهم، ثم سيستخدمونها في الستينات، هم مصابون إما بشيخوخة مبكرة أو مراهقة متأخرة!

العالم الآن يتغير ويتحول ويتبدل بسرعة مذهلة، تجعل الإنسان في لهاث دائم خلف خطى العالم الذي يركض. والتغيير في ذواتنا أمر حتمي لمسايرة التغير الإيجابي في العالم أو لمقاومة التغير السلبي فيه.

* * *

هذه ليست موعظة!

كونوا حريصين على التغيير..

كونوا هذا العام غير وخيراً من عامكم الذي مضى، وغير ولكن ليس خيراً من عامكم القادم بإذن الله.

وما دمنا في مطلع عام جديد، فليقل كل واحد منا للآخر:

كل عام وأنت بخير..

كل عام وأنت بغير.

أنفلونزا المشاهير

يحب الشهرة 99.9 في المئة من البشر، فهي تحقق إشباعاً ذاتياً قد لا تحققه الأموال الطائلة أو المناصب العالية البعيدة من الأضواء.

تختلف أساليب الناس في السعي خلف الشهرة الإعلامية. فكتابة المقالة الصحافية، كيفما اتفق، سبيل جذاب نحو الشهرة، خصوصاً أن «تسهيلات» كتابة المقالات أصبحت متوافرة الآن أكثر من ذي قبل!

ارتكاب الفضائح قد يكون أسوأ الاختيارات الاضطرارية لمطاردة الشهرة. أما أكثر الطرق سهولة وبساطة في البقاء تحت الأضواء فهي الأخبار الصحافية الاجتماعية، وهي الوسيلة الأكثر شعبية والأقل كلفة.. مادية أو معنوية أو جسدية:

«فلان يقضي مع عائلته إجازة صيف هذا العام في ربوع سويسرا، وقد اعتاد فلان أن يقضي إجازته الصيفية في هذا المكان الأوروبي الذي ألفه منذ سنوات طويلة». «فلان رزق وحرمه المصون بمولودة جميلة، أسمياها «شهيرة»، وقد وعد فلان الأصدقاء بوليمة دسمة».

«فجع فلان بوفاة زوج خالته إثر مرض مزمن ألزمه الفراش طويلاً،

وقد تلقى فلان العديد من برقيات التعازي من كبار المسؤولين، وما يزال يتلقى التعازي على جواله رقم ......».

هؤلاء «الفلانون أو الفلانات» الذين يظهرون في أخبار الصحف بداعٍ أحياناً، ومن دون داع غالباً، هم نزيهون لا يحبون دخول سوق المشاركات الإعلامية، ويترفعون عن الوقوع في مستنقعات شهرة الفضائح.

لكن لماذا يبحث الناس عن الشهرة؟

هل الشهرة والأضواء تجلب المزيد من المال... أم أنها تتيح المزيد من الخدمات والتسهيلات المميزة؟ أم أنه لمجرد الإشباع العاطفي للذات، الذي نسميه إشباع الغرور، حين يشير الناس بأصابعهم إلى المشهور قائلين: هذا فلان.. الذي كان في ربوع سويسرا الشهر الماضي. وذاك فلان.. الذي رزق بمولودة الأسبوع الماضي: ترى هل وضع وليمة لزملائه كما وعدهم في الخبر الصحافي؟!

الناس يسعون إلى الشهرة، ثم إذا جاءتهم وأطبقت عليهم الأضواء من كل صوب بدؤوا يهربون منها، ويغطون وجوههم أمام كاميرات التصوير، وربما ضربوا أحياناً بعض المصورين الفضوليين بأيديهم أو بأيدي مرافقيهم.

وكثيراً ما اشتكى المشاهير من أنهم لا يستمتعون مع أسرهم أو أصدقائهم بحرية التنقل والحركة. فهم لا يستطيعون دخول أي مطعم أو البقاء في أي مقهى أو التسوق في أي محل، دون ترتيب مسبق. وإذا فعلوا ذلك فإنهم لا يستطيعون التصرف بحرية وعفوية لأن أعين

الناس تراقبهم وتترقب أي هفوة منهم يتناقلونها، بالألسن سابقاً.. أو باليوتيوب حالياً!

المشهور عندما يجلس في أحد المقاهي في الشانزليزيه، ثم يرتكب أحد أبنائه خطأ فإنه لا يوبخه، رغم قناعته بأهمية توبيخه، فقط حتى لا يراه الناس في الطاولات المجاورة وهو ينتهك حقوق الطفل، كما لا يستطيع أن يجادل ملامات وعتابات زوجته على طاولة الطعام، حتى لا يقول الزبائن بجواره إنه ضد حقوق المرأة، كما يجب عليه أن يضع قدراً كافياً من الابتسامات والبخشيش للغرسون (الرديء) حتى لا يقول المتلصصون بجواره إنه بخيل أو ينتهك حقوق الإنسان!

المشهور لا يستطيع أن يتصرف بطبيعته كما يريد، فيوبخ ولده ويتلاوم مع زوجته مثل بقية البشر إلا في بيته فقط، وعندما يتأكد من إغلاق نوافذ البيت أمام كاميرات المصورين المزروعة ربما في الحديقة الأمامية للمنزل.

إذا كانت هذه هي حال المشاهير ومعاناتهم، فلماذا يسعى الناس إلى الشهرة؟!

والمشاهير أكثر عرضة للإصابة بأنفلونزا الخنازير، لأنهم مجبرون على مخالطة ومصافحة المعجبين، وللأسف فإن المعجبين عادة ما يكونون من الفئات البوهيمية التي همها مصافحة المشاهير كل يوم.. ومصافحة الماء كل عام!

لكن المشاهير والوجهاء عادة ما يضعون بجوارهم مصدّات بشرية تدرأ تعرضهم لمثل هذه المآزق. ويحرص المشاهير على أن يجعلوا

مرافقيهم من الغلاظ الشداد الذين كلما رآهم الناس أو تعاملوا معهم خرجوا بالصورة النمطية المكررة بأن المحيطين بالمشهور هم البلاء والكبرياء وأن المشهور نفسه أكثر تواضعاً وتودداً من مرافقيه.. لكن كيف الوصول إليه؟!

وهكذا تنطلي لعبة تبادل الأدوار بين المشهور وظلّه.. من الشدة إلى المودة ومن التكشيرة إلى الابتسامة.

الحق في أن تكون «جاهلاً»

(1)

رن هاتفي الجوال: آلو.. السيد فلان؟ نعم أنا السيد فلان. معك فلانة من صحيفة «...». ثم انطلقتْ: في تقرير عربي صدر حديثاً، أظهر أرقاماً متصاعدة عن البطالة العربية، لكن الجديد المثير هو منسوب البطالة المتزايد بين الشباب الخليجي، هل تعتقد أن الأزمة المالية العالمية هي التي خلقت البطالة الخليجية، وهل تعتقد... وهل ترى... وهل تظن...؟! (أنا لا أعتقد ولا أرى ولا أظن!) ، كنت أود أن أقول ذلك للصحفية المندفعة لكني تريثت حتى لا أكون مندفعاً أنا الآخر.

قلت لها إني أعتذر عن المشاركة في هذا الاستطلاع الصحفي. بدت عليها المفاجأة من اعتذاري، كيف يتم التفريط في فرصة جديدة لظهور اسمي وصورتي في صحيفة مرموقة كتلك. أجبتها بكل وضوح: لن أشارك لأني لم أطّلع على التقرير الذي تتحدثين عنه، وليس لدي معلومات مسبقة وكافية عن موضوع البطالة وأرقامها ومسبباتها وحلولها.

ببساطة موضوع البطالة ليس من اهتماماتي، أو على الأقل لم يندرج في أجندة اهتماماتي حتى الآن.

(2)

منذ أن قررت «استئجار» غرفة وحمام في «حارة» الثقافة والإعلام قبل ثلاثة عقود.. أخذت على نفسي تعهدين: أكبر وأصغر. أما الأصغر فهو أن يكون لدي الشجاعة ورباطة الجأش في أن أقول لا لفتنة الظهور الإعلامي السائب، وأن لا أفقد قواي وأنهزم أمام أي طلب إعلامي لإجراء حوار أو كتابة مقال أو المشاركة في استطلاع، أياً كان الموضوع أو التخصص!

أما التعهد الأكبر فهو أن أحتفظ بحقي وحق نفسي عليّ في أن أكون جاهلاً في كثير من المواضيع والقضايا التي تثيرها وتلوكها وسائل الإعلام كل يوم. ليس فقط حقي في أن أكون جاهلاً، بل أن أكون شجاعاً ومعتداً بجهلي هذا، خصوصاً أمام أولئك البشر الخوارق الذين يعرفون كل شيء عن كل شيء، مع أن الثقافة في إحدى تعريفاتها المئة، هي معرفة بعض شيء عن كل شيء.. فقط!

التعهد الأكبر سيعينني على الالتزام بالتعهد الأصغر، والعكس أيضاً صحيح، فأنا لا أريد أن أعرف كل شيء حتى أستطيع التجاوب مع كل صحيفة أو قناة فضائية.. فور الاتصال المنتظر!

لست ملزماً بمعرفة أرقام البطالة، ولا تشغلني معرفة أسماء قادة

الفصائل المتناحرة في الصومال، ولا يهمني أن أعرف لماذا استبعد مرشح الأكراد من قائمة الانتخابات العراقية، ولا حجم التبادل التجاري بين تركيا ولبنان، ولا حفظ النسب المخصصة للبحث العلمي في الميزانية اليابانية. رغم أني أعرف أن التوافر على مثل هذه المعلومات والأرقام يجعلك إنساناً تسيل له لعاب الميكروفونات والمسجلات الحوارية. لكن التزامي، عن قناعة وارتضاء، بالتعهدين الأكبر والأصغر، يجعلني أستخفّ بذلك اللعاب «المغري».

كان أحد أصدقائي يدهشني دوماً بكم المعلومات والأخبار الهائلة التي لديه. الآن لم يعد يدهشني كثيراً، فإعجابي بالحشو الفضفاض والهامشي من المعلومات والأخبار لديه يماثله إعجابي بقدرتي وجسارتي الهائلة على كبح جماح نفسي من الانجراف وراء هذا الشبق الإخباري الطامس لعجينة الإنسان العذري غير المتمدن فينا!

(3)

كتب لافارج، زوج ابنة كارل ماركس، مذكرة في العام 1883م يهاجم فيها عبادة العمل، جعل عنوانها: «الحق في أن تبقى كسولاً». انطلق لافارج في دعوته تلك من حثّ الإنسان على استعادة ذاته الطبيعية، أي ترك مكان العمل المحموم.. لا لشيء إلا للجلوس فقط مع الإنسان الذي في دواخلنا. الإنسان الذي قد تمر علينا أيام دون أن نجلس معه ونتحدث إليه، رغم أنه أقرب الناس إلي.. إنه «أنا».

لو كان لافارج حياً حتى الآن، ورأى حجم العمل الذي فرضته ثورة الإعلام والمعلومات وما يتطلبه هذا من نفاق ثقافي تفرضه، لا الرغبة في أن تَعرف بل في أن تُعرف، لكان وضع كراسة أخرى عنوانها: الحق في أن تبقى جاهلاً.

وهاأنذا أضعها لنفسي.. ولمن شاء من أصدقائي «الجاهلين» / المتجاهلين!

(ينبغي الإدراك بأن لافارج لم يكن يدعو إلى الكسل المطلق أو تهميش قيمة العمل، بل إلى الكسل الانتقائي لمواجهة ما أسماه «رذيلة العشق الطاغي للعمل». وبالمثل، فهذه الكتابة لا تدعو إلى الجهل المطلق أو تهميش قيمة المعرفة، بل إلى الجهل أو التجاهل الإرادي لمواجهة ما يمكن تسميته أيضاً بالعشق الطاغي والهوس للمعلومات والأخبار).

الإنسان البرمائي

إنه أسلوب من الحياة، يكفل لمتخذه التنفس دومًا، وعدم الاختناق مدى الحياة. والإنسان البرمائي هو في العموم برجوازي ناجح، قادر على العيش في محيط الثراء وفي صحراء الجفاف في آن واحد، فهو يتزلف الارستقراطيين من أجل أن يصعد إليهم، ويتزلف البروليتاريين المحرومين من أجل أن يصعد عليهم إلى الارستقراطية بالطبع.

والبرمائي هذا لا يجيد أي شيء لكنه يصلح لكل شيء لا هو بالمالح ولا بالحلو، ولا بالمثقف ولا الأمي، ولا المغرور ولا المتواضع، ولا الوديع ولا المتوحش. فهو متدين وفاسق، غني ومحتاج، وطني وثوري، تراثي وعولمي، يجيد المديح والذم بالدرجة نفسها، والديمقراطية والديكتاتورية، والبيع والشراء، والحضور والغياب، لا هو معك ولا ضدك، فلا هو بالعدو ولا بالصديق، تراه في كل زمان، لكنك لا تراه في كل مكان، لأنه يجيد لعبة المكان والزمان.. فهو ظاهر وخفي، ثرثار ومنصت، ولأنه برمائي فهو جاف ورطب، جاف في قراراته رطب في تبريراته، شفاهه دومًا مبللة بالكلام المعسول،

ولكن مخّه ناشف. ولأنه برمائي أيضًا فإنه يجيد صيد البر والبحر معًا، يصطاد في الماء العكر مثلما يصطاد في الصحراء المغبرة، وهو لا يأكل فريسته لكنه لا يرميها للهوام.

والكائنات البرمائية هذه لا يخلو أي مجتمع منها، لكنها تزيد وتنقص من مجتمع لآخر بحسب اتساع مساحة المناطق الرخوة في التنظيم والفكر والثقافة المجتمعية، هذه المساحات الرخوة هي التي تسمح بتكاثر الكائنات البرمائية في المجتمع.

ولأن البرمائي هذا قد عاش في حياته عيشتين، فإن أول عقاب يناله هو أنه يموت ميتتين: برية ومائية، ثم يدفن في مكان لا هو بالبر دومًا فيُزار ولا بالبحر دومًا فيكون شهيدًا، إنه مدفون في منطقة المد والجزر، تلك التي كان يتلاعب بها في حياته فغدت تتلاعب به في مماته.

الكرائسيون

عندما تترك «الكرسي» لسبب أو لآخر - وخصوصًا لآخر! - فاعلم أنك وقد سُلبت الكرسي، بين خيارين: إما أن تبقى واقفًا بانتظار كرسي آخر، أو أن تجلس على الأرض مؤمنًا بقانون الجاذبية الأرضية!

الذين يتركون الكرسي، أو يُتركونه، إما يتركون معه ذكرى أو لا يتركون.

أما الذين لا تبقى لهم أي ذكرى لدى الناس فهم أولئك الذين لا يعرف الناس ماذا عملوا، وماذا لم يعملوا؟ ماذا أنجزوا وفيم أخفقوا؟ ماذا أصابوا وماذا أخطأوا؟ هم الذين مروا كيوم لا ريح فيه ولا رياح!

وأما الصنف الثاني من «الكرائسيين» فهم الذين تركوا ذكرى عند الناس، يتذاكر الناس بعضها بين الحين والآخر فينقمون على الزلازل الأرضية التي لا تفرق بين الأخضر واليابس، ويتذكر الناس بعضها الآخر فيشكرون الجاذبية الأرضية التي تسقط التفاح الفاسد!

إذًا.. فأيهما خير للإنسان: أن يترك الكرسي دون ذكرى أم يتركه بذكرى.. لا يدري أتكون مضيئة أم مظلمة؟

الذين يغادرون بدون ذكرى، فينساهم الناس حتى قبل أن يجف العرق الذي تركوه على الكرسي(!) يزعمون أنهم كانوا يعملون لله ومن أجل مبادئهم والتزاماتهم فقط، وأنهم لاتهمهم آراء الناس، وينسى أو يتناسى هؤلاء أن «الناس شهود الله على أرضه».

لكن هذا الاستشهاد الأخير لا يعني أيضًا تكريس العمل كله من أجل كسب رضا الناس ومداهنتهم على حساب الأنظمة والعدالة والإنجاز.

حسنًا.. لأولئك الذين يظنون أنهم تركوا «ذكرى» ما بعد الكرسي، ويريدون فحصها إن كانت مضيئة أو مظلمة، فليفحصوها في وجوه الناس عندما يصادفونهم في المجالس العامة، أو في عدد من يتشافى لهم عندما يمرضون، أو في عدد من يحضر أفراحهم وأتراحهم، ويطرقون بيوتهم دونما سبب سوى الذكرى الطيبة. محبة الناس الحقيقية هي التي تمتلكها.. وحتى بعد المنصب.

إذا لم يكن الأمر لك كذلك فأعد حساباتك في الكرسي القادم!!.

الإنسان الورقي

(1)

يولد الإنسان بـ «ورقة»، ويموت بورقة، ولا يدفن إلا بورقة.

وبين الولادة من التراب إلى الدفن في التراب يحصل الإنسان على «اسمه» في الحياة بورقة، ويثبت مؤهله التعليمي بورقة، ويتوظف بورقة، ويتزوج بورقة، ويطلّق إن أراد أن يصحح غلطته! بورقة، وينجب ولداً بورقة يتناسخها الأولاد من ورقة ولادة أبيهم الأولى، لتكتمل بها دورة الإنسان «الورقي».

ويتساءل الواحد منا أحياناً: كيف كان الناس يعيشون في عصور ما قبل الورق..!؟

لكنه يتساءل كثيراً: كيف يمكن أن تنطلي علينا دعوات «الكوفيين»، (وهم جماعة متكاثرة خرجت علينا من رحم «ستيفن كوفي» صاحب العادات السبع والعشر والمئة للمدير الناجح)، بإمكانية العيش في حياة بلا ورق! ؟

حضر صديقي دورة في «التخلص من الورق»، وفي نهاية الدورة

وزع عليهم المحاضر «الكوفي» رزمة من الأوراق فيها إرشادات «صادقة» عن كيفية التخلص من الورق!

(2)

وحين يوصف الإنسان بأنه كائن «ورقي»، فإن هذا لا يغفلنا عن الإنسان «الحديدي» (السوبرمان) عند نيتشه، أو عن الإنسان «الخشبي» عند سرفانتس، فهذه تحولات طارئة واستثنائية من القوة والضعف تطال حالات مخصوصة، لكن الإنسان في عمومه يبدأ ورقياً وينتهي ورقياً.

(3)

يستخدم الإنسان في وسائل إيضاحه عادة أحد ثلاثة عناصر أساسية: الورق أو الزجاج أو الحديد.

ولو تمعنا قليلاً في خصائص كل منها، لوجدنا أن الورق هو الأكثر قرباً وتشابهاً مع الإنسان، فالورق أصله كائن حي، يتكاثر ويشرب الماء ويهرم ويموت في أصله.

ثم إنه كالإنسان.. سهل الطي والتشكل، كما أنه يتلون بسرعة!

لذا يمكن دراسة الإنسان بوصفه «كائناً ورقياً» يمكن الكتابة على صفحة قلبه بسهولة، كما يمكن مسح ما هو مكتوب في ذاكرته بسهولة أيضاً، كما أنه خفيف كالورق يميل حيث الرياح به تميل!

الإنسان كائن ورقي.. لسانه القلم، ولعابه الحبر!.

في نسبية الألم.. هل أنت دلوع؟!

(1)

استيقظت صباحاً على «تخشّب في حلقي، قلقت.. فأنا لا يهزمني شيء مثلما يهزمني الرشح والأنفلونزا. (لم أقلق من أن تكون أنفلونزا خنازير، فأنا أعاني ما يكفي من أنفلونزا البشر!).

ولأني في خضم مؤتمر اليونسكو الذي لا يرحم، لم أكن مهيئا للمماطلة لاختبار مناعتي ومقاومتي الذاتية. ذهبت إلى الطبيب، دخل في حلقي وأذنيّ ثم قال: لديك التهاب بكتيري حاد في الحلق، تحتاج إلى مضاد حيوي وراحة. تعجّب الطبيب حين أخبرته بأني جئته من قاعة الاجتماعات، وليس من قاعة النوم، وسأعود من العيادة، ملزماً، إلى قاعة الاجتماعات أيضاً.

قال الطبيب: لو كان هذا الالتهاب الذي أراه في حلقك عند شخص آخر لربما استدعى الطبيب إلى منزله وهو على فراش المرض.

شكرت الطبيب على إعجابه بنضالي وكفاحي.

(2)

خرجت من العيادة وأنا أفكر: هل أنا صبور حقاً؟

يأتيني هذا السؤال نابعاً من سؤال آخر أشمل وأعقد: هل الألم الذي أشعر به في حلقي هو نفس الألم الذي يشعر به شخص آخر مصاب بنفس التهاب الحلق؟!

سنفترض أن لدينا شخصين يتمتعان بنفس الوزن والعمر، ثم أصبناهما، مخبرياً، بنوع واحد من البكتيريا أو الفيروس.

ثم بدأنا بتدوين المتغيرات عليهما: نسبة التهيّج في الحلق مثلاً، مقدار ارتفاع درجة حرارتهما، الخمول الذي يعتريهما.

السؤال الآن: هل الألم الذي يعانيه كل منهما متماثل؟!

هنا تكمن عقدة: الصبور والدلّوع!

من الصعوبة قياس مستوى الألم الحقيقي بناء على تشابه مصدر الإصابة الأصلي، وذلك بسبب وجود متغيرات أخرى: مستوى المناعة لدى كل منهما، متانة الأغشية والأنسجة، وحساسية الأعصاب المرسلة لإشارات الألم لديهما.

الإحساس بالألم يشبه إلى حد كبير الإحساس بحرارة أو برودة الطقس. ففي مدينة حرارتها ذلك اليوم 30 درجة مئوية، ستجد شخصين أحدهما يشتكي من الحر وآخر من البرد، وثالث بجوارهما يتغنى بهذا الطقس الربيعي المعتدل!

كثيراً ما نردد عن بعض أقاربنا أو أصدقائنا: أن فلانا لا يمرض

إلا أحايين قليلة لكنه إذا مرض يمرض بشدة ويعاني آلاماً مبرحة. ونحن لا ندري: هل هو حقاً يمرض بشدة بعد طول العافية، أم لأنه لا يمرض إلا قليلاً فهو يفاجأ بأحاسيس الألم التي ألفها الآخرون الذين يمرضون أحايين أكثر منه؟!

وفي أمثال العرب: (لا وجع إلا وجع العين ولا همّ إلا همّ الدَّين) و(لا وجع إلا وجع الضرس ولا هم إلا هم العرس). ولا أحد يجزم أيهما أشد: ألم العين أم ألم الضرس؟ وعليه يمكننا أن نقترح صيغاً جديدة للمثل: (لا وجع إلا وجع الراس ولا هم إلا هم الناس) و(لا وجع إلا وجع العظام ولا هم إلا هم الإمام)!

(3)

مررت بتسع تجارب جراحية في رجلي منذ الصغر، لكن أبرزها كانت حفلة جراحية جماعية، قبل 17 عاماً، على يد طبيب عظام روسي. كنا ثمانية من الضحايا في غرف تنويم متجاورة، والطبيب / الجزار يمر علينا كل يوم ليسمع ألحاناً متفاوتة من التشكي والتأوه، بعض المرضى الثمانية يكاد يلطم ويهدد بالانتحار من شدة الألم، وآخرون يتأوهون باستحياء ويتألمون بذوق!

وكنت أتساءل أمام تلك العينة الجماعية من المتألمين: هل هؤلاء أكثر صبراً أم أقل ألماً من أولئك؟!

إذا أيقنا بأن الألم نسبي، فهذا يعني أن الصبر أيضاً نسبي.

(4)

أخي الأب.. أختي الأم، لا تتسرعوا في وصف أحد أبنائكم بالصبر والآخر بالدلع، فالمسألة أعقد من هذه الأحكام الجاهزة!

طبيبي العزيز.. لا أدري إن كان وصفك لي بأني صبور هو وسام أستحقه حقًا أم لا؟.

قل لي من أنت.. أقل لك من أنت!

قل لي ماذا تقرأ.. أقل لك من أنت. قل لي ماذا تأكل، قل لي كيف تنام، قل لي كيف تمشي، قل لي من تصاحب، قل لي كيف تعطس، قل لي لون جوالك، قل لي نوع العلك الذي تمضغ، قل لي قل لي قل لي... أقل لك من أنت!

كثر تداول هذه اللازمة الشرطية في المسعى نحو تحديد معالم الشخصية الفردانية، بعد أن كانت في بداياتها تطرح سؤالاً صارماً وجذرياً حول أحد العناصر الأساسية المكونة للشخصية، ثم تهاوت الأسئلة في بساطتها وسذاجتها أحياناً إلى درجة تعليق مناط الشخصية حول نوع العلكة أو لون الجوال. وفي محرك البحث «غوغل» يوجد أكثر من 77 صفحة فيها قرابة 800 مقالة أو موضوع عنوانه: قل لي(كذا).. أقل لك من أنت!

ما الذي يدفع الناس إلى اللهاث وراء هذه القوالب الجاهزة للتصنيف، هل هو الإحساس بفقدان الهوية؟!

يوجز صموئيل هنتنغتون، صاحب «صدام الحضارات»، سؤال

الهوية هذا المنبعث في سماوات العالم اليوم بقوله: «مشكلة هوية أميركا فريدة، ولكن أميركا ليست فريدة في أن لديها مشكلة هوية. النقاشات حول الهوية الوطنية سمة عامة لزمننا، ففي كل مكان تقريباً تساءل الناس وأمعنوا النظر وأعادوا تعريف ما هو مشترك لديهم وما يميزهم عن الشعوب الأخرى: من نحن؟ وإلى أين ننتمي؟» (من كتاب: «من نحن»، هنتنغتون).

الحديث عن الهوية يشطر الناس إلى شطرين، ليس على أساس نوع الهوية، بل على أساس الموقف من الهوية. فبينما يعشق البعض الحديث عن الهوية ويهوى لعبة البحث عنها، يكمن شعور مناقض لدى البعض الآخر بكراهية الحديث عن الهوية والاستخفاف بمن ما زالوا يعتنون بها. رغم هذين الموقفين المتنافرين يبدو، كما يرى هنتنغتون أيضاً، أن الهوية كالإثم: لا نستطيع النجاة منه مهما عارضناه.

سؤال الهوية هذا مربك وعويص ومضحك أحياناً، ففي زمن الإنسان «المفرد» كان هذا الإنسان يحب الآخر، لكن العولمة أنتجت إنساناً «عالمياً» يكره الآخر ويحب نفسه، أي عندما كان الإنسان وحده كان يحب الآخرين، وعندما أصبح مع الآخرين أصبح يحب نفسه! قد تبدو هذه التحولات تناقضاً، لكنها لن تكون كذلك إذا أدركنا أنها تجاذبات بين الأنا والآخر في البحث عن المفقود، فالإنسان بطبعه دوماً يبحث ويشتاق إلى البعيد والغائب أكثر مما بين يديه.

كانت أدبيات الأزمنة القديمة تتوق دوماً إلى الوحدة الإنسانية والعالم الموحّد، وعندما حققت العولمة وثورة الاتصالات هذه

الأمنية البشرية القديمة أصيب الإنسان بخيبة أمل في إدراكه أخيراً أن الوحدة الإنسانية والتماثل والتشابه بين البشر في الأمنيات والمطالب لم تكن هي الأرضية المناسبة لفرش «المدينة الفاضلة». اكتشف الإنسان المفجوع أن وحدة الإنسانية تعني، كما يعبرّ ميلان كونديرا، أن لا يستطيع أي إنسان الهرب إلى أي مكان!

يبتغي الإنسان الآن النفاذ بجلده من هواة سلخ الجلود الذين يسعون إلى توحيد لون الإنسان وملمسه وطعمه حتى يصبح إنساناً معولماً يليق بحجمه وشكله كل لباس ومقاس. هذه المطاردة الشرسة بين الهوية العولمية والهوية الوطنية التي أضناها لهاث المطاردة، هو ما دعا منظمة اليونسكو إلى التدخل لمساندة الهويات الوطنية المستضعفة عبر صوغ الإعلان العالمي لاتفاقية الحفاظ على التنوع الثقافي، وهي اتفاقية تلوي عنق الذاكرة المغيبة عن لذائذ التنوع البشري في اللغة والدين والعرق والطبائع، وأن الوحدة الإنسانية المستشرفة لا تكمن في «التماثل» بل في «التسامح» مع التعددية والتنوع والاختلاف... بلا خلاف!

ما قيمة أو لذة مائدة الكون لو تحولت كلها إلى همبرغر أو حتى طاجن أو جريش، أو لو تحولت زقزقة العصافير والطيور كلها إلى نغم ولحن واحد. أو لو تحولت الحيوانات كلها إلى منزلية أليفة، فإذا خرجنا إلى الصحارى أو السفاري لم نجد فيها حيواناً مفترساً ينسينا وحشية الإنسان!

إذا أخفقت اليونسكو في مسعاها المتحيز لنصرة ودعم الهويات

الصغرى أمام مطاردة هوية العولمة الكبرى (الكوبرا)، فلن أجعل سؤالي لك هو: قل لي من أنت.. أقل لك من أنت، بل: قل لي من أنا.. أقل لك من أنت!.

الفهرس



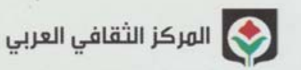
زياد الدريس

قل لي من أنا ... أقل لك من أنت

... والبرمائي هذا لا يجيد أي شيء لكنه يصلح لكل شيء لا هو بالمالح ولا بالحلو، ولا بالمثقف ولا الأمي، ولا المغرور ولا المتواضع، ولا الوديع ولا المتوحش. فهو متدين وفاسق، غني ومحتاج، وطني وثوري، تراثي وعولمي، يجيد المديح والذم بالدرجة نفسها، والديمقراطية والديكتاتورية، والبيع والشراء، والحضور والغياب، لا هو معك ولا ضدك، فلا هو بالعدو ولا بالصديق، تراه في كل زمان، لكنك لا تراه في كل مكان، لأنه يجيد لعبة المكان والزمان.. فهو ظاهر وخفي، ثرثار ومنصت، ولأنه برمائي فهو جاف ورطب، جاف في قراراته رطب في تبريراته، شفاهه دومًا مبللة بالكلام المعسول، ولكن مخّه ناشف. ولأنه برمائي أيضًا فإنه يجيد صيد البر والبحر معًا، يصطاد في الماء العكر مثلما يصطاد في الصحراء المغبرة، وهو لا يأكل فريسته لكنه لا يرميها للهوام. والكائنات البرمائية هذه لا يخلو أي مجتمع منها، لكنها تزيد وتنقص من مجتمع لآخر بحسب اتساع مساحة المناطق الرخوة في التنظيم والفكر والثقافة المجتمعية، هذه المساحات الرخوة هي التي تسمح بتكاثر الكائنات البرمائية في المجتمع.

من مقالة "الإنسان البرمائي"

إذا أخفق العالم في مسعاه المتحيز لنصرة ودعم الهويات الصغرى أمام مطاردة هوية العولمة الكبرى (الكوبرا)، فلن أجعل سؤالي لك هو: قل لي من أنت.. أقل لك من أنت، بل: **قل لي من أنا.. أقل لك من أنت!**



المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
cca_casa_bey@yahoo.com
markaz@wanadoo.net.ma


ISBN 978-9953-68-512-6
9 789953 685120